شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها

الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي

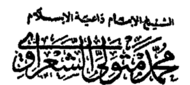


جمع وإعداد وترتيب
عبد القادر أحمد عطا

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

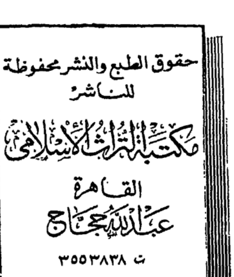
الاسكندرية





جمع وإعداد وترتيب
عبد القادر أحمد عطا

مكتبة التراث الإسلامي
١٤ شارع صفية زغلول - قصر العيني القاهرة


حقوق الطبع والنشر محفوظة
للناشر
مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبدالله حجاج
ت ٣٥٥٣٨٣٨

الكتاب والمؤلف

(١) الكتاب . . .

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ، الرحمة المهداة إلى الناس كافة :

أما بعــــد :

فلقد وفقنى الله تبارك وتعالى إلى اخراج هذا العمل الجليل ، لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى حفظه الله وأيده بنصر منه ، وذلك بعد أن أعده وهيأه للنشر الأستاذ الفاضل عبد القادر أحمد عطا .

وأقول وفقنى الله تبارك وتعالى إلى إخراجه لما فيه من الأمور الخطيرة التى يجب على كل مسلم ومسلمة أن يكونا على علم وبينة منها ، فنحن فى عصر اشتد فيه الكيد للإسلام والمسلمين واتهم الإسلام ورسوله بتهم هما منها براء .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذباً ﴾ (١)

وللأسف الشديد فإن واقع المسلمين وحالهم يدعو للأسى والألم ويزيد من مرارة تلك التهم .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً) . ولكن فى هذه الغربة دائماً الطائفة الناجية المنصورة بإذن الله تحمل مشعل الحق لتنير للأمة طريقها وترشدها إلى سواء السبيل .

وإمامنا فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حمل بيده الكريمة مشعل الحق وأنار الطريق وكشف عن أباطيل وتهم دبرت فى الخفاء للنيل من الإسلام وأهله .

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٢)

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (٣)

---

(١) سورة الكهف، آية : ٥ .

(٢) سورة الانفال ، آية : ٣٠ .

(٣) سورة المدثر ، آية : ٣١ .

قرأت ذلك الكتاب مرة ومرات ثم تراءى لى أن يكون هذا الكلام بين دفتى غلاف يحمل صورة للشيخ الشعراوى وهو يدك رؤوس الإلحاد والكفر لأنه ـ أى هذا الكتاب ـ هدم لكل المعتقدات الخاطئة التى يشيعها المستشرقون والشيوعيون والإلحاد فى كل زمان ومكان .

ولكن كيف يكون ذلك وشيخنا هو إمام الداعين إلى الله بالكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والأمر بالمعروف ، ويشجب العنف فى القول والعمل ، ونحن معه على ذلك إن شاء الله .

وذات ليلة وأنا أتصفح الكتب المطبوعة للشيخ الشعراوى وجدت مقالة كريمة عظيمة لفضيلته عن انتشار الإسلام وموضع القوه فى ذلك — وجدت فيها ما نصه :

(فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد المسلم عن قبول دعوته وعن الدعوة إلى الله ، فلنا أن نقف أمام هذه القوة وأن ندكها دكاً) .

ولما كان فى هذه المقالة من بيان شاف لموضوع هو من جملة الأمور التى يشكك فيها المشككون أحببت أن أنقلها بالكامل بنصها ، لعل الله يشرح صدور الناس لها ويهديهم إلى الحق بإذنه إنه على ما يشاء قدير .

* * *

نص كلمة الشيخ الشعراوى منقولة من كتاب (الإسلام حداثة وحضارة) للشيخ الشعراوى طبع دار العودة ببروت سنة ١٩٨٢ . صفحات(٢٣١ ، ٢٣٢)

« قضية القوة فى الإسلام قضية موضوعة لمهمة ، إلا أننا فى آخر عهدنا قد وجهنا المهمة وجهة أخرى ، هذه الوجهة هى ما أراد أعداؤنا أن يقنعونا بها ، قالوا : إن الإسلام انتشر بالسيف ، فأحب المسلمون أن يردوا ذلك ، فقالوا : لا ، إن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، والسيف لم يستعمل إلا دفاعاً

عن النفس ، وبعد ذلك ، جاء المسلمون وأعجبتهم تلك الفكرة مـــن أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، ولكنهم ما فطنوا إلى خبث هذه الدعوة » .

خبث هذه الدعوة نشأ من ماذا ؟ .

نشأ من خوف خصوم الإسلام أن يحقق الإسلام المراد من وجوده فى الأرض ليظهر على الدين كله ، ومعنى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ : إن مهمته إثبات الرشد للإنسانية كلها ، هم يريدون للإسلام أن يكتفى بالبقعة التى هو فيها ، ولا يفكر تفكيراً طموحياً فى أن ينساح ليجعل كلمة الله هى العليا ، فيقولون : الإسلام جاء للدفاع فقط ، وما دام جاء للدفاع فقط فليس له أن يتعدى سائر الحدود .

تلك كلمة لها بريق ، تبرئ الإسلام من البتر بالسيف ، ولكنها تعوق الإسلام عن مده الذى أراد الله له ، لأن الإسلام ما جاء لينشىء أمة واحدة فى الأرض ، وإنما جاء ليعمم عدالة السماء فى الأرض كلها ، ولكنه لا يفرضها فرضاً ، إذن ، فما دام لا يفرضها ، فماذا يكون الموقف ؟ .

إنه إن فرضها فرضاً بقوته — إن كان يملك قوة الفرض للعقائد — فإنه قد استولى على القوالب ، والإسلام لا يريد أن يستولى على قوالب ، وإنما يريد أن يستولى على قلوب ، لأن الاستيلاء على القوالب يحكم ظاهر الأشياء ، ولكنه لا يحكم خفيات الأشياء ، فقصارى أن تملك القالب والشكل ، أن صاحب القالب والشكل يحاول ألا تراه منحرفاً عن منهج الحق ، فإذا ما خلا له الجو ، أو إذا استطاع أن يستتر بجرمه فإنه يفعله .

لمـــاذا ؟

لأنك لم تملك قلبه ، وإنما ملكت قالبه ، فقالبه هو موضوع الحساب والجـــزاء .

لذلك وضع الحق مبدأ فى انسياح الإسلام ، فقال :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

ما دام لا إكراه فى الدين ، فكيف تريد أن يمتد الإسلام إلى رقع أوسع ؟

نقـــول :

إن الذى يمنع منطق عدالة الإسلام هو قوى الطغيان فى الأرض ، فالإسلام حين ينشر مبادئه ويجد قوة من قوى الطغيان تحاول أن ترد المسلم عن قول دعوته وعن الدعوة إلى الله ، فلنا أن نقف أمام هذه القوة ، وأن ندكها دكاً ، وبعد ذلك نترك الناس أحراراً ليروا رأيهم بحرية وبمحض اختيار . فلا فرض لعقيدة .

ولذلك نجد الإسلام حينما فتح بلداً من البلاد ، أحمل كل أهله أن يسلموا ؟ ، أم ظل فيهم من ظل على دينه ؟ .

فلو أن الإسلام جاء لينشر بالسيف ، فإن معنى ذلك : أن كل بلد فتحه الإسلام كان ولابد أن يسلم أهله ، ولكننا نجد كثيراً من البلاد المفتوحة ظل أهلها على دينهم ، ولا حرج عليهم » .

* * *

لذلك كان شكل الغلاف على ما هو عليه الآن ليس عنفاً ولا تعسفاً فى الدعوة ، وإنما هو استخدام للقوة فى موضعها لإزالة رؤوس الكفر والإلحاد وللتخلية بين الناس ودينهم ، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

هدانا الله إلى ما فيه صالح أمتنا الإسلامية ورفعة رايتها خفاقة .

وجزى الله شيخنا عن الإسلام وأهله خير الجزاء . . .

(٢) المؤلف

من سنن القرآن أن نعلم حجج الكفر ، ونعلم الرد عليها ، ونعمل على هذا المنهج فى الدعوة إلى الله .

وفنون الكفر تختلف فى كل عصر عن العصر الذى سبقه وهذا طرف من المؤامرة العالمية على الإسلام .

والمؤامرة على الإسلام قديمة قدم الإسلام نفسه ، تشتد حيناً وتخبو حيناً آخر ، ومن أراد أن يعرف الكثير عن ذلك فليرجع إلى كتب المستشرقين وردود علماء الإسلام عليها. ففيها الحنق العظيم على الإسلام وأهله ، والحمد لله لو أن أحداً بيده أمر هذا الدين لكان على الدين السلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو وحده المتكفل بحفظه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (١) . .

ومن حفظ الله لهذا الدين أنه يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد للأمة الإسلامية أمر دينها ويوقظها من سباتها العميق .

وفضيلة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى حفظه الله ومتعه بالصحة والعافية من مجددى هذا القرن من الزمان ، وفقه الله ، وشرح صدره ، وألهمه رشده ، وأبان على لسانه الكثير والكثير ، وبأسلوب مقتدر لا أقول ساحر بل هو صادق. والصدق عندما يلامس القلوب يفعل فيها ما هو أشد من السحر ، وأكثر .

هذا إلى تطابق حياته الكريمة مع أقواله العظيمة فهو ينفق فى الخير بإيمان من لا يخشى الفقر ولا يترك مناسبة لخدمة البلاد والعباد إلا ويجود بماله فيها ضارباً بذلك المثل والقدوة الحسنة للداعية المسلم الراشد .

كما أن حياة الزهد التى يعيشها هى أيضاً مثل أعلى لكل من أرادوا الدار الآخرة وباعوا أنفسهم لله — وزهده عن ورع لا عن فقر وهذا سر عظمته ، حفظه الله .

أردت بهذه الكلمات القليلة أن أتقدم بين يدى هذا الكتاب العظيم وكنت أود أن يكون التعريف بمؤلفه فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى هو فاتحة القول فى هذا الكتاب حتى يعلم الناس عن شيخهم وإمامهم اليسير من فضله الكثير ؛ خاصة وأن الناس كل الناس يحبون الشيخ ويجلونه ويتلهفون على محاضراته ، وأحاديثه وكتبه ، لما فيها من خير كثير وبيان شاف يعالج أمراض العصر الذى نعيشه .

---

(١) سورة الحجر ، آية : ٩ .

الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي

* من مواليد أوائل ابريل سنة ١٩١١ م . بقرية دقادوس مركز ميت غمر محافظة الدقهلية .
* حفظ القرآن فى قريته وتلقى التعليم فى معهد الزقازيق الدينى الابتدائى . والثانوى ، ثم التحق بكلية اللغة العربية .
* حصل على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١ م .
* حصل على شهادة العالمية « الدكتوراه » مع إجازة التدريس سنة ١٩٤٣ .
* عين مدرساً بمعهد طنطا الأزهرى وعمل به ، ثم نقل إلى معهد الإسكندرية ثم معهد الزقازيق .
* أعير للعمل بالسعودية سنة ١٩٥٠ م . وعمل مدرساً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة .
* عين وكيلا لمعهد طنطا سنة ١٩٦٠ م .
* عين مديراً للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف سنة ١٩٦١ م .
* عين مفتشاً للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٩٦٢ م .
* عين مديراً لمكتب الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون سنة ١٩٦٤ م .
* عين رئيساً لبعثة الأزهر فى الجزائر سنة ١٩٦٦ م .
* عين أستاذاً زائراً بجامعة الملك عبد العزيز — كلية الشريعة بمكة المكرمة سنة ١٩٧٠ م .

* عين رئيساً لقسم الدراسات العليا بجامعة الملك عبد العزيز سنة ١٩٧٢ م .
* عين وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٧٦ م.
* عين عضوا بمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٠ م .
* اختير عضوا بمجلس الشورى سنة ١٩٨٠ م :
* يقوم بمهمة الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق أطال الله لنا عمره :

عبد الله حجاج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتعرض العالم الإسلامى بوجه عام ، والعربى بوجه خاص لهجمة ضارية ومكثفة أفقدت العرب والمسلمين توازنهم ، فترنحوا تحت وطأتها حيارى ، كما يحار السكارى والمخدرون لا يدرون يومهم من أمسهم ، ولا شرقهم من غربهم . . . وتردى المعلمون والموجهون بين تلك الحفر والوهاد والنتوءات التى أحدثتها تلك الهجمات فى بناء المجتمع هم الآخرون ، حتى عز الوصول إلى الحق ، وثار حوله الجدل العنيف الذى يصل فى بعض الأحيان إلى استعمال السلاح فى مقابلة العلم والمنطق والعقل .

وظواهر هذا الهجوم الشرس كثيرة ومتباينة تكاد العقول الواعية تضل بين دروبها ومنعطفاتها ، حتى تستسلم إلى حالة من « الحيرة » القاتلة ، لطول ما تعانى من أزمة الإقناع ، وعدم الرغبة فى السماع من أولئك الذين احتوتهم هجمات التخريب ، فجعلتهم من أنصارها الفدائيين ، فانكمش العقل بين ضجيج الحناجر الصاخبة ، وروائح الفتنة الصاخبة ، يتلمس الطريق إلى الخلاص ولا خلاص .

ومن ظواهر هذه الهجمات وتناقضاتها : إفساح المجال للاتجاهات الإلحادية الجاحدة ، لتكون عملا فعالا فى عضوية الأمة باسم الديمقراطية ، وغزو القيم التراثية ومحاولة تحطيمها بإفساد المزاج الإسلامى والعربى ، وذلك تحت تأثير الفنون المستحدثة ، مثل « الجينز » و « الأوبرا » و « الباليه » ونشأ عن كل ذلك لون من الفن والموسيقى قصد به أولا وأخيراً تمييع الشخصية العربية ، ووضعها فى حالة من حالات الضياع بين ما هو عربى وما هو غربى فلا تستطيع أن تعود إلى عروبتها ، ولا أن تندمج فى غربيتها ، فتبقى مسخاً مشوهاً لا يصلح لحضارة ينتسب إليها ، ولا مجموعة عمل يعمل من خلالها : كل ذلك مع تحفظاتنا فى هذا الموضوع من حيث الحلال والحرام ، وإنما نحن نروى واقعاً مجرداً واضحاً لكل ذى عينين .

ومن تلك الظواهر : تلك الدعاية المسمومة والمكثفة فى جميع وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة لرياضة البدن بشكل لا يتوازن مع رياضة العقل . وأصبحت شعوب الإسلام كلها مترددة بين لاعب ، أو هاو ، أو مشجع عنيف شرس ، فكأنه يقيم الدليل القاطع بشراسته على أنه فى حالة من الفهم والوعى لا تؤهله لأن يكون رياضياً حسبما اصطلح عليه رجال هذا الفن من تقبل الهزيمة والنصر بروح واحدة . . . وماذا تصنع شعوب لا تقع عيونها ، ولا يطرق آذانها ، ولا يصك مشاعرها ، صباح مساء إلا صوت البطولات الرياضية ، وضجيج الألعاب الكروية المقلق والمثير للمشاعر ، والصحف الرياضية المستقلة ، بالإضافة إلى الصفحات الكاملة من الصحف القومية . . . ماذا تصنع شعوب جاهلة غارقة فى الأمية أمام هذا الزحف العجيب إلا أن تستسلم بكليتها إلى هذه البدعة الوافدة ، فتراها كل آمال الحياة ، وكل وسائل النجاح ، وكل مقاييس العظمة ، وقد كان ذلك إلى أن عشنا حتى نرى من ينتحر فداء لهزيمة ناديه المفضل ، وإلى أن يعرض علينا فى « التلفزيون » صورة أب أبله تافه العقل يعرض علينا فى فخر مريض صورة ابنته البالغة من العمر ست سنوات ، وقد أصابها الشلل ، لأن ناديها المفضل قد هزم فى كرة القدم ، ولك يا أخى القارئ أن تتصور تلك البيئة التى تعيشها تلك الابنة المجنى عليها من أبيها وأمها وإخوتها ، لأنها لم تصل إلى تلك الحالة النفسية المتخلفة من فراغ أبداً .

ومن تلك الظواهر بدعة « النجومية » . وإطلاق اسم « النجم » على نوعيات معينة من الناس لا تستحقه ، وتحريف لقب « النجم » عن أصله الذى وضع له فى شريعة الإسلام ، وتلويث هذا اللقب بنسبته إلى أهل الدعارة والمتاجرين بالشرف والمتاجرات .

وأصل هذه التسمية ، ما جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » . فإذا بهذا اللقب وهذا الاقتداء وهذا الاهتداء يتحول فى عقول المسلمين إلى هذا الجو العفن الخانق الذى يموج بالرذيلة ، وينضح بالكذب ، ويتميع فى أجوائه الرجال ، وتسترجل

النساء ، وتطالعنا أجهزة النيابة العامة كل يوم من جحوره بكل غريب من السلوكيات . . . . والأمم تقف منهم موقف الإعجاب ، والصحف تتتبع مباذلهم وكأنهم خفايا التاريخ .

ومن المؤسف أن يصطنع قراء القرآن سمات نجوم الكذب والتمثيل والرذيلة ، فيبدو الواحد منهم فى صورة من اللباس الإسلامى ممسوخة ، تفيض بالميوعة والابتذال ، كما يبدو هو فى صورة أشد مسخاً وميوعة مما لبس على جسده ، وبعد ذلك يسهر الليالى يلحن القرآن على آلات الموسيقى ، ويجدد نفسه كل يوم ويدربها على كل مثير من مواطن الوقف والابتداء غير المشروعة ، حتى يثير حناجر السامعين بالضجيج وهم يسمعون القرآن ، ليبقى هو الأوحد « نجم القرآن » شأنه فى ذلك شأن « نجم الكرة » و « نجم المسرح » و « نجم السينما » . وما أكثر النجوم المظلمة فى عصرنا .

وإنى أعلن كما أعلنت فى كتابى « هذا حلال وهذا حرام » أن أول من تغنى بالقرآن عبد اسمه : « الهيثم » حبسه سيده فى السجن ، وكان هذا العبد مأبوناً ، وحلف ألا يطلقه حتى يقرأ القرآن ، فقرأه ملحناً على صورة الغناء ، فأطلقه من السجن . . فهذا هو رائد الغناء بالقرآن فى التاريخ .

ومن الظواهر كذلك صور المادية التى يدعو إليها الإعلام فى صورة مغلفة بالدعوة إلى الفضيلة ، صورة هزيلة من الفضيلة تبطن صورة واضحة آسرة من الدعوة للمادية ، وأن كل شىء فى الدنيا هو « الفلوس » . . وكانت بركات هذه الدعوة التى تبناها النجوم بأمر سادتهم وسماسرة سادتهم هو ما نراه من خراب الذمم ، وجشع التجار ، وبيع الأعراض ، ودياثة الرجال ، وضياع الشباب ، والإعلان عن اختفاء الفتيات ، وتحطيم دعائم الأسرة ، وتمرد الزوجات .

ومن الظواهر المضحكة عند كل ذى بصيرة ما نشهده فى عالم الثقافة من استعباد لكل أجنبى من الثقافات ، حتى لم يخل كتاب جامعى عربى من حروف إنجليزية أو فرنسية تزينه ، ولايعد الأستاذ أستاذاً إلا إذا كان

هكذا عبداً لتلك الحروف الأجنبية ، ولو جاء بها لغير فائدة : : وقد سرى هذا الداء إلى شيوخ لا يعرفون من اللغات الأجنبية حرفاً واحداً ، فنقلوا ما عندهم من بعض الكلمات ، حتى ينطبق عليهم ما انطبق على أقرانهم من وصف « العلماء المستنيرين » العارفين بثقافات الغرب أو الشرق.

وأشهد بالله لقد توقف بعض الأساتذة فى رسالة للدكتوراه تقدم بها طالب ، حتى يرصعها الطالب بهذه الكلمات وتلك النصوص . . . فلما واجهه الطالب بأنه لايعرف لغة أجنبية ، قال له الأستاذ « أريد صورة لغة أجنبية فقط » .

ولعل الداء قد وضح أمامك يا أخى القارىء ، ولعلك تنظر إلى هذا الداء نظرة مجردة حتى لاتكون مثل غيرك معولا هداماً فى أعز بناء للتراث وهو بناء الإسلام نفسه .

ومن العجائب : أن ترى فى كل دولة إسلامية هذه الظواهر ، تراها وأجهزة الدولة تشجعها وتقوم عليها ، ثم ترى دعوة إلى إصلاح ما فسد من الأخلاق والتعليم وغير ذلك من القيم الإنسانية ، وذلك فى الوقت الذى لم تتوقف فيه تلك الأجهزة الغربية عن بث سمومها ، ولا يتجه المسئولون نحو تنقية بناء الدولة من هذه الأورام الخبيثة التى تهتك قوتها ، وتمرغ كرامتها فى الوحل .

ودعوة الإصلاح حينئذ غير مجدية . . وذلك لأن الذين يقومون على تغيير المناهج إنما هم من نفس الرجال المصابين بنفس المرض ، والذين رباهم مرضى قد أزمن مرضهم ، ولهذا نعجب كل العجب من أن المنهج الوليد الجديد الذى سمى منهج إصلاح ، إنما هو نفس المنهج القديم المريض العفن ، قدمه إلينا كبار الموجهين وقد ضحكوا على « ذقوننا » بتغيير بعض الألفاظ وبعض العناوين . أما الطريقة فهى هى ، وأما المواضيع فهى هى ، وأما التزام منهج اللغة العربية بخطة التنمية الاقتصادية ، وبخطة الإسكان ، وبخطة الأمن الغذائى ، وبخطة تحركات الكبار فهى هى ، حتى أصبح الضحك بكاء ، وأصبح العجب جنوناً .

ولندع هذا المرض الخطير والمعقد والمزمن والمستعصى بعد أن أشرنا إلى بعض مظاهره إلى الهدف الرئيسى الذى تهدف إليه تلك الهجمة الشرسة من هجمات التغريب والتشوية التى تسود عصرنا ، ألا وهو « الإسلام » نفسه . . الإسلام من حيث هو دين تجميع ، أصبح دين تفريق : : كان ديناً يجمع الأعداء تحت لواء أخوة الإسلام ، فأصبح ديناً يفرق الأحباء تحت أقبية العداء والتناحر والبغضاء . وهو الموضوع الذى تعرض له فضيلة الشيخ الشعراوى فى كتابه هذا . . وهو أهم موضوعات هذا الكتاب ، وأهم موضوعات العصر الذى نعيش فيه .

وظواهر الفداء بين المسلمين لا تخفى على أحد . حروب هنا وهناك ، وأجهزة إعلام تسب وتلعن هنا وهناك . . وانقطاع لما أمر الله به أن يوصل من العلاقات هنا وهناك . . واختلاف فى الرأى ونظام الحكم والولاء فى كل مكان ؛ بل فى كل بيت وأسرة فى ديار الإسلام . . ومن أجل المال قتل الأخ أخاه ، وقطع رحمه ، وسب عرضه ، وتحللت الأسر والعشائر ، حتى أصبح من العسير أن يجتمعوا إلا على صراع وعداء .

وقد ألصق أعداء الإسلام تبعة هذا الداء الوبيل بالإسلام حديثاً ، كما ألصقه الشيعة بالإسلام قديماً .

وتحت يدى رسالة مخطوطة من المكتبة الظاهرية بدمشق للإمام الفقيه المحدث عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى المتوفى عام ١١٤٣ من الهجرة كتبها عام ١١٣٢ من الهجرة اسمها « رد الحجج الداحضة على عصبة الغى الرافضة » وهى جواب عن سؤال يقول : إنه ورد عليه من بعض الجهات الشامية ، منسوب إلى طائفة من أهل البدع الاعتقادية . وصورة السؤال الذى ورد عليه فى منتصف شهر جمادى الأولى عام اثنين وثلاثين ومائة وألف هو قولهم :

« إن دين الإسلام مذهب واحد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى زمن الصحابة ، وكذلك الخلفاء الراشدين كان الإسلام مذهباً واحداً ،

لا خلاف فيه ولا تبديل فجعلتم يا أهل السنة أربعة مذاهب : شافعى ، وحنفى ، ومالكى ، وحنبلى . وزعمتم أن اختلافهم رحمة ، وهو تكذيب بعضهم بعضاً ، وهذا التفريق ما جاء فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فيكون بدعة ، فأجيبوا ، وإلا كنتم أهل بدعة » .

ويعجب الإمام النابلسى من جهل هؤلاء الشيعة الرافضة ، ويقول : إن دين الله وحى على رسوله الذى لا ينطق عن الهوى . ومع ذلك كان ينسخ بعضه بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾(١) . فكيف مع ذلك كان دين الإسلام مذهباً واحداً فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ؟

وأيضاً فإن الصحابة كانوا مجتهدين ، وكل منهم اجتهد فى معانى القرآن الكريم ، ومعانى السنة النبوية وقال بفهمه ، وعمل به فى طاعة ربه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك ، ويرضى عنه ، حتى قال : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وقال : « من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد » . وقال الله فى كتابه : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ (٢) .

وهذا دليل على جواز اجتهاد المجتهدين فى دين الإسلام إذ كانوا علماء بعلوم العربية الاثنى عشر علماً ، وبعلوم الحديث ، والخطأ مغفور منهم شرعاً بقوله تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ (٣) .

وهذا كله كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، والأحاديث فى ذلك كثيرة .

ويؤكد النابلسى ما يؤكده الشيخ الشعراوى من أن أمور الأحكام العملية هى محل الاجتهاد ، أما الأحكام الاعتقادية فليس بين المسلمين فيها خلاف أصلا ، وكلهم فيها مجمعون على مذهب واحد .

وقولهم : إن المذهب كان واحداً فى خلافة الصحابة صحيح فى العقائد ،

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٠٦ . (٢) سورة النساء ، آية ٨٣ .

(٣) سورة الحج ، آية : ٧٨ .

أما المخالفون هم فيها فهم أهل البدع كالروافض والخوارج وفرقهم الكثيرة . وقد ذكر النجم الغزى افتراق الشيعة إلى خمس فرق : كيسانية ، وزيدية، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية ، وكلهم يسمون « الروافض » . وافترقت هذه الفرق إلى فرق كثيرة ، لكل منها اعتقاد خاص مخالف لاعتقاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعمال تخالف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

والآن قد وضح أن أهل الشيعة هم أصل هذا الاتهام ، وأن المبشرين المحدثين قد أخذوه عنهم ، وأن الشيعة هم أصل البلاء فى العالم الإسلامى كله منذ وجدوا ، ودليلنا على ذلك قول الإمام على زين العابدين بن الحسين ، وهو من كبار أئمة أهل البيت لمن حضر من الشيعة : « **لقد أحببتمونا حتى صار حبكم علينا عاراً** » .

ومن العجائب أن يرمى الشيعة أهل السنة بأنهم مبتدعون . ويعلق النابلسى على هذا الاتهام بقوله : إنهم قوم لا حياء لهم ، فهم سفلة رعاع قباح الظاهر والباطن ، جهلة لا يعرفون معنى البدعة ، ولا سمعوا فى غيرهم أقسام البدع ، ولا اطلعوا على حديث فى ذلك يعرفون معناه ، وإنما هم همج كالبهائم ، والكلام معهم ضائع مثل كلام المستيقظ مع النائم .

ونحن نضيف إلى العلل التى ذكرها الأستاذ الشعراوى : أن الإسلام قد شرع لأهله أن يتنافسوا فيما بينهم فى التواضع وخفض الجناح بعضهم لبعض ، فقال تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ . وقال : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ . وقال لرسوله : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . وهو المتبوع صلى الله عليه وسلم ، واتباعه سنة الإسلام . وقال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا ﴾ .

ومجموع هذه الوصايا القطعية تؤكد على المؤمنين ألا يتنافسوا فى العلو

بعضهم على بعض ، وأن يكونوا على العكس من ذلك متنافسين فى التواضع بعضهم لبعض ، وبذلك تكون الألفة ، وبعكس ذلك يكون التدابر والعداء . قضية مسلمة لا عوج فيها ولا امتراء .

وقد فطن إلى هذا الملمح من أسباب القوة عالم متأخر من علماء المغرب فى القرن الثانى عشر الهجرى هو أبو بكر البنانى الدرقاوى فذكر أن سبب ضعف المسلمين هو التنافس فى العلو ، وعد هذا التنافس فى العلو فى الأرض زيغاً عن ظاهر الشريعة ، يتبعه زيغ عن باطن الشريعة وهو القوة والألفـة .

ونحن لا نشهد فى عالم الإسلام اليوم إلا تنافساً فى العلو ، فكل أمة تريد الزعامة على غيرها ، وزعامتها أرشد الزعامات ، وحضارتها أرقى الحضارات ، وناسها أشرف الناس ، بل إن القطر الواحد نجد فيه هذه النزعة البغيضة ، وما صراع طلاب الأزهر بين أهل الصعيد وأهل الشرقية فى أوائل هذا القرن ببعيد . . إذ كان صحن الأزهر الشريف مسرحاً دموياً للفريقين بين الحين والحين :

التغيير إذن ليس بتغيير المناهج على الصورة التى نشهدها ، وإنما هو تغيير جذرى بإنشاء جيل آخر على المنهج السوى قبل أن ينشئه الله بجبروته على أنقاض هذا الجيل كما يقول :

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (١) .

ولعلنا نلاحظ أن الآية تشير إلى بذل سبب التنافس فى العلو وهو المال فى سبيل الله . . وإلا فلنتربص جميعاً ما يفاجئنا به القدر من وسائل التربية الإلهية القهرية . . ولسنا والله ممن يطيق ذلك وعلى الله قصد السبيل .

عبد القادر أحمد عطـــا

---

(١) سورة محمد ، آية ٣٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وبعد :

فلقد تلقيت فى بحر هذا العام سبعة عشر كتاباً كلها من بلاد إسلامية ، وهذه الكتب تشترك فى سمة واحدة ، هى ما وصل إلى هذه البلاد من تشكيكات فى الدين مرة وفيما وصل إليه هذا التشكيك من أصل الدين ، والإيمان بإله قادر مدبر لذلك الكون ، وبعضها يتصل بأمر الوحى ، وأمر القرآن ، وأمر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومرة يأتى التشكيك فى نظام الإسلام ، وعدم صلاحيته لقيادة حركة الحياة فى ذلك العصر .

ولقد عرفت مصدر كل ذلك . فالمصدر الإلحادى الذى يتصل بنفى الإله القادر الخالق المدبر للكون لاشك فى أنه قد وفد إلينا من الشرق الشيوعى؛ وأما ما يتعلق بالتشكيك فى أمر القرآن وأمر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قد وفد إلينا من الغرب ، لأن رائحة الكلام الذى فيه تدل على أنهم يشككون فى الإسلام ، ولكنهم يؤمنون بدين يأتى من الله بواسطة رسل .

وقد شاء الله أن يفسر لى ذلك اللغز بما وصلنا من أخبار عن مؤتمرات ، عقد أولها فى نيسان عام ١٩٧٤ م ، وعقد الثانى فى ولاية كاليفورنيا عام ١٩٧٧ م ، وأيضاً مؤتمر آخر ، ختم حصيلة المؤتمرات التى سبقته ، ويدل على أن وراء ذلك قوة هائلة مادية ودولية ، وأن الذين دعوا إلى هذه المؤتمرات هم صفوة المفكرين فى هذه البلاد ، وعلى رأسهم أساتذة الاستشراق فى العالم ، وعلماء متخصصون فى علوم الاجتماع يدرسونها

فى الجامعات ، وعلوم الإنسان والسلالات ، ومعهم متخصصون فى دراسة الأحوال الاجتماعية فى الأمم النامية .

ولقد انتهت تلك الدراسات والأبحاث إلى توصيات أعلنت ، وتوصيات أخرى سترت ، لتعلن قريباً .

وشاع فى الكتب التى تلقيتها آثار ذلك كله ، من التشكيكات التى لم يريدوا بها التبشير بدين مسيحى كما كان يعلن سابقاً من أهداف حملات التبشير فى العالم ، ولكن أريد بها شيء آخر ، هو « التنصير » .

فكأنهم لم يكتفوا بالتبشير بالديانة المسيحية ، ولكنهم أرادوا تنصير المسلمين الذين يؤمنون برسالة الإسلام .

وقد عرض ذلك الكتاب الذى يحمل كل هذه الأفكار على المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية بالأزهر ليدرسه ، وليضع ما يمكن أن يكون سداً ذريعاً لعدم تحقيق تلك الأفكار .

ولما راجعت الكتب وجدت كثيراً من الإشكالات التى كتبها الغيورون على دينهم الإسلامى ، تأخذ حظاً من هذه الأشياء ، مما يدل على أن أجهزة التبشير قد باشرت مهمتها .

ومما حز فى نفسى أن تكون مصر ضالعة فى هذا العمل ، ببحث طويل مستفيض قدمه قس يتبع الكنيسة المصرية اسمه « بشير عبد المسيح » . وهذا ما يمكن أن يكون عصب هذه العملية كلها .

لذلك استخرت الله ، وجعلت لقائى هذا العام فى شهر رمضان منصباً على ما يمكن أن يثار بواسطة هذه العمليات الضخمة المستفيضة ، لتأخذ كل قضية من القضايا التى تثار حظها ، فنبحثها على حدة ، حتى تحدث لنا مناعة فى النفوس الإسلامية ، تستطيع لا أقول : أن ترفض هذه الأفكار ، ولكنها تبصق على هذه الآراء .

وافــد الإلحــاد

أما الموجة التى وفدت إلينا من الشرق فأمرها معلوم ، وهو التشكيك فى الدين ، سواء كان إسلامياً أو مسيحياً أو يهودياً .

وذلك أمر يراد به نفى القداسات عن أشياء يعتقدها الناس ، ليسيروا حركة حياتهم على منهجها ، وبذلك يخلو الجو لمريدى التسلط على الأمم ، والمتسلطين على الحكم ، حتى لا يجدوا منازعاً لهم ، لا من قانون السماء ، ولا من قوانين الأرض .

وإذا كان الأمر سيسير منطقياً ، فإننا نتكلم أولا لنرد وافدة الإلحاد عن أبنائنا المسلمين .

وكل ما تدور حوله وافدة الإلحاد من الأفكار ليس هو مناقشة النظام الذى جاء به الإسلام ، وإنما هو مناقشة النظام الذى جاء به الدين الذى يسبق الإسلام ، فلم تنشأ هذه الوافدة لمناقشة الإسلام ابتداء .

فهم يقولون : لا نجد فى ذلك الدين نظاماً يحكم لنا حركة الحياة ، وهم صادقون فى ذلك ، ولكنهم لو امتد بهم البحث قليلا ، فدرسوا نظام الإسلام ، لوجدوا الشىء كل الشىء الذى يحكم حركة الحياة بما لا يمكن أن يتفوق عليه نظام بشرى على الإطلاق .

ولذلك نقول لهم : إنكم قاصرون حتى فى دراسة الأديان التى تهاجمونها. فالمسيحية لم تأت لتنظم حركة الحياة ، ولكنها جاءت لتعطى شحنة إيمانية وجدانية . وهذه الشحنة هى التى كانت مفقودة عند اليهود .

فاليهود سيروا الأمر كله مادياً ، لدرجة أنهم أرادوا أن يجعلوا الله جسماً ، يجلس ويضع رجليه على قصعة ، وقالوا لموسى :

﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ .

هم أرادوا أن يكون إله الغيب أمراً مادياً . وكذلك جاءوا فى كل النظم وجعلوها مادية ، ولو أنك استعرضت التوراة بطولها ، فإنك لن تجد شيئاً يتعلق باليوم الآخر أبداً .

إذن فالمسيحية لم تجىء لتنظم حركة الحياة ، حتى يقال فى الفلسفة الشيوعية : إنها دين لا ينظم حركة الحياة ، ونحن جئنا لننظم حركة الحياة .

وإذا قلنا لهم : إذا كنتم تريدون تنظيم حركة الحياة فلماذا بعدتم عن دراسة الإسلام ؟ فادرسوه إذن لتصلوا إلى ما تريدون . قالوا : إن مصدر الإسلام خرافى لا وجود له .

فكأنهم نقلوا البحث من بحث نظم الإسلام إلى البحث عن المصدر الذى جاء منه الإسلام . وما دمت تقول لنا : إن الدين الذى جاء بنظام ينظم حركة الحياة جاء من إله خرافى . فإنا نقول لك : إنك جئت بنظام الشيوعية . وقلت إنه من عندك . فخذ هذا النظام الإسلامى وقارنه بنظامك ، ولو على أنه حصيلة نظام إسلامى نسب إلى إله أنتم تقولون انه خرافى .

ناقشوا إذن قضية النظام فى ذاتها ، وابتعدوا عن مصدر ذلك النظام لأننا لا نريد أن تؤمنوا بذلك الإله ، ولكننا نريد أن تقارنوا نظمكم بنظمنا .

نحن نقول : إنها من الله . وأنتم تقولون : لا إله . إذن فناقشوا نظاماً بنظام . فلو فعلتم ذلك ، ثم جئتم إلى أى جزئية من جزئياتكم لتبحثوها ، فستجدون التطبيق يفسد قولكم .

التطبيق الذى طبق منذ عام ١٩١٧ م إلى الآن فى كل دولة من الدول التى وقعت تحت سيطرة هذا المنهج من الفكر ، لم يؤد إلى ثمرة ، بل بالعكس أدى إلى خراب .

فإذا ما نظرنا إلى هذه النظم ، وجدنا أن الإسلام يأتى بالرحمة الهينة اللينة ، لينشىء جيلا مبنياً على شىء من الهوادة ، لا شىء من العنف ، فهو حينئذ لا يريد ما تريدون .

أنتم تقولون : إنكم نظمتم حركة الحياة فى الأرض . ونحن نقول لكم : لا . أنتم لم تنظموا حركة الاقتصاد للناس فى الأرض ، بل عمدتم إلى حصيلة جهد أناس لتفرقوها على أناس لم يجدوا ولم يعملوا .

وكان من الأصلح أن تجعلوا الناس سواسية فى الحركة إذا أردتم أن يكونوا سواء فى الإنتاج والمحصول والغلة . ولكنكم أخذتم من قوم تعبوا لتعطوا قوماً لم يتعبوا . ثم لم ترضوا بهذا أيضاً ، لأنكم حكمتم بقضية فلسفية . . هذه القضية هى : الدعوى ونقيض الدعوى ، والجامع بين الدعوى ونقيضها .

الدعوى كانت شراسة الرأسمالية . . فالنقيض جاء ليأخذ السلطة ويعطيها للعمال ، ضد الرأسمالية . ولكن العمال بشر أيضاً ، قد يأخذون هذه السلطة ، وبعد ذلك يطغون فيها كما طغى أصحاب الرأسمالية . فقلتم : لابد من أن توجد هيئة تجمع بين الدعوى وبين نقيض الدعوى فى يد واحدة . وهذه هى اليد الحاكمة فقط .

فأصبحت اليد الحاكمة هى التى تملك الثروة ، وتتحكم فى العالم ، ولا سلطة لأحد بجانبها فى أى حركة . وسموا هذه الهيئة « السيطرة الموجهة » .

ونحن نرد على ذلك لنعطى الجيل الإسلامى الناشىء خميرة يمكن أن يرد بها على كل هذه الوافدات .

إن الثورة التى بدأت عام ١٩١٧ م ، وأشاعت مبادئها ، ادعت فيما أشاعته : أنها لم تأت بالشيوعية التى يحبون أن يؤصلوها فى المجتمع ، وإنما جاءت بمقدمة للشيوعية ، وهذه المقدمة هى « الاشتراكية » . . إذن هم لم يدخلوا فى مجال الشيوعية ، ومعنى هذا أن النظام الشيوعى أيضا من الاشتراكية فيما يريدون .

ونقول لهم : إذا كنتم قد قمتم بهذه المقدمة لتقدموا للشيوعية ، فانظروا أتقدمتم إلى الشيوعية ، أم تأخرتم حتى عن الاشتراكية ؟

إنكم فوجئتم بواقع الحياة يصور أخطاءكم ورعوناتكم . . وجدتم أن

الشعور بالنفعية الشخصية فى النفس قد انطفأت جذوته ، ولم يعد هناك وازع فى النفس للعمل ، ما دام الأمر سيتركز فى أن كل فائض يؤخذ ، فلا داعى لأن يجهد الإنسان نفسه إلا بمقدار حاجتــه ، إن الطموحات البشرية لا تجيء فى كل الأفراد ، وإنما الطموحات البشرية تأتى فى أفراد معدودين ، فى كل مجتمع ، وفى كل عصر :

فإذا كانت المنفعة الذاتية هى التى تسيطر على حركة الإنسان إقداماً وأدباً وإخلاصاً وغيرة ، لأن كل هذا سيعود على العامل ، فان هذا الحافز قد فقـــد فى نظامكم مما أدى إلى أن البلاد التى كنتم تصدرون منها حبوبكم جاعت حتى أصبحتم أنتم تستوردون الحبوب من الخارج :

فهذا يدل على أنكم لابد أن تتراجعوا فى النظام ، حتى يكون أقرب إلى الطبيعة ، إلى نظام يستغل فيه حب الذات فى النفس البشرية ، حتى يكون له حافز يجعله يعمل ، وإن لم يكن المجتمع فى باله ، لأنه إن عمـل والمجتمع ليس فى باله ، فسيدخل المجتمع فى الفائدة قهراً عنه :

فهب أن إنساناً يريد أن يبنى عمارة ، وعنده مال مكنوز ، فيدخل الله عليه خاطر استثمار المال ، فيقول : ومالى لا أستغل مالى فى بناء عمارة ضخمة تدر على كذا وكذا . . نقول له : إن المجتمع سيفيد من ذلك أردت أم لم ترد : العامل ، ومصانع الطوب ، والأسمنت ، والبناء والكهربائى والمهندس ، ومهندس الديكور ، وتاجر الأدوات الصحية ، وغير ذلك كثيرون سيفيدون من هذا العمل .

فإذا نظرت وجدت أن المجتمع قد استفاد منها قبل أن يستفيد منهـا صاحبها ، من أفقر الطبقات إلى أغناها :

إذن فالحركة الذاتية فى النفع الذاتى لابد أن توجد نفعاً للمجتمع ولو لم يكن المجتمع فى بال صاحب المال ، لأن المجتمع سيفيد رغماً عنه ، رضى أم أبى .

إذن فأنتم اضطررتم إلى أن تدخلوا نظام الحافز . . إذن فأنتم لم تتوسعوا فى نظام الاشتراكية إلى الشيوعية ، وإنما رجعتم حتى من بعض أبواب الاشتراكية . . ومعنى أنكم رجعتم : أن هناك فكراً شرساً قد هيأ لكم أمراً لتسيطروا به على ناحية الحكم فى البلاد ، وتستذلوا الناس ، لأنكم جعلتم لقمة العيش التى تقيم حياتهم فى أيديكم ، ومعكم سلطة الحكم .

إذن فأنتم رجعتم إلى الحافز لتوجدوا شيئاً من الحركة النافعة المؤملة حتى الموت . فإذا كنتم رجعتم عن الاشتراكية التى ادعيتم أنكم جئتم بها مقدمة للشيوعية ، إذن فهذا تراجع . هذا مقابل الدعوى .

وإذا نظرتم إلى الدعوى الأصلية ، وهى أنكم جئتم بذلك لتخلصوا الدنيا من شرور الرأسمالية ، فلننظر فى الجهة المقابلة إلى شراسة رأس المال . : أبقيت على شراستها ؟ أم أعطى العمال الحقوق ، والراحات ، والمكافآت ؟

إذن فلا الرأسمالية سارت فى شراستها ، ولا الشيوعية سارت فى شراستها ، تلك مخطئة ، وهذه مخطئة ، والواقع كذب الاثنين معاً .

إذن فلابد أن تتنازل الشيوعية عن شراستها ، وأن تتنازل الرأسمالية عن شراستها ، ومعنى تنازل الطرفين المتقابلين أنهما تواجها ولم يتدابرا ، وإذا ما تواجها التقيا بالضرورة فى منتصف الطريق ، ومنتصف الطريق هو الذى جاء به الإسلام .

فلو أنكم نظرتم ، لوجدتم الإسلام قد صحح شراسة الشيوعية ، وصحح شراسة رأس المال ، فلو أنصفتم لجعلتم هذا النظام الإسلامى منقذاً لكم مما تورطتم فيه ، سواء كان ما تورطتم فيه هو فكرة الشيوعية ، أو فكرة الرأسماليـــة .

فإذا أردنا أن نقهرهم على أن يقارنوا نظمهم بنظام الإسلام الذى أبقى على الحافز ، وأشاع الخير الفاضل ، ثم الحركة الإنسانية ، وجدنا أنهم قد أحرجوا . : ووجدنا أنهم يذهبون إلى شىء آخر لا يدخل فى مقام

المناظرة ، ولا تقوم به حجة ، لأنهم فروا من مناقشة النظام ، ومقارنته بالنظام الآخر ، إلى الكلام فى مصدر هذا النظام .

قالوا : الكلام الذى جئتم به أيها المسلمون جئتم به من أصل خرافى . . إذن فالنظام موجود أولا ، أما كونه ممن ، فهذا أمر لا يعنيكم ، فقارنوا نظاماً بنظام . وقد قارنتم ففشلتم . . وتبين تفوق النظام الإسلامى على نظمكم جميعاً ، وأنه سابق ، ومتميز ، وأنه لا إذلال فيه لأحد على أحد ، لأن أحداً لم يدع أنه أتى به ليستذل به الناس ، أو يحاول بذلك أن يجد له مكاناً بين الناس ، لأنهم يقولون : إنه ليس من عندنا ، إنه من عند الله .

لقد بدءوا يناقشون فكرة الله .

نقول لهم : هذا فرار من ميدان المناظرة ، وميدان الجدل ، ما لكم والله الذى قلنا : إننا جئنا بالنظام من عنده ؟

ناقشوا نظاماً بنظام . . ناقشوه على أنه نظام بشرى فى مواجهة نظام بشرى آخر . ومع ذلك فسنحاول أن ندخل معكم فى النقاش ، حتى لا تظنوا أننا فررنا من نقاش هذه المسألة .

إنكم تقولون : إن الإله الذى تنسبون إليه هذا النظام إله لا وجود له ، وأن العالم يسير هكذا بطبيعته ، إلى غير ذلك من الكلام .

نقول : لو أنكم نظرتم إلى نظامكم ، أيمكن أن يدعى أحد أن النظام جاء هكذا بدون مقنن له ؟ إنكم قلتم : ماركس . . لينين . . إذن فالنظام الذى عندكم لم تستطيعوا أن تنسبوه إلى قوة خفية ، وإنما نسبتموه إلى قوة مادية .

فالنظام عندنا جاء متميزاً عن نظامكم ، ألا تحبون أن ننسبه إلى أحد كما نسبتم نظامكم إلى ناس ، وحاولتم أن تجعلوهم آلهة .

إنه نظام جئتم به لم تقولوا إنما جاء هكذا ، ولكن قلتم إنه جاء معتمداً على فلاسفة وأساتذة ومدارس وغير ذلك : : فإذا كان هذا النظام الذى أصبح مرجوحاً بعد مقارنته بالإسلام لم يجىء بطبيعته ، ولم تجدوه هكذا ، أنظام يتفوق عليه تقولون إنه جاء هكذا من غير أحد ؟

وهنا تقولون : لا . إنه جاء من أحد مثلنا .

نقول : إن الذى جاء بشىء عجيب لا يمكن أن يتملص منه لينسبه إلى غيره ، لأن الناس قد تصيدوا كمالات غيرهم لينسبوها إلى أنفسهم ، فإذا ما جاء أحد بهذا النظام المتفوق فهل يمكن أن ينسبه إلى شىء آخر ، ويقول : أنا لم أصنعه ؟

إن الإنسان منا يدعى ما ليس له ، هل يعقل أن مثل هذه الكمالات تترك بلا دعوى ؟ أو أن الذين يحملون هذا النظام يريدون أن يرتفعوا به عن مستواهم ، فقالوا : إنه من عند إله قادر ؟

فلو أنه كان من عندهم لقالوا كما قلتم ، ومجدوا الذى جاء به كما مجدتم :

إذن فقولكم إن مصدر هذا النظام خرافى شىء لا يعنيكم ، ولا يدخل فى موضوع النقاش .

وأيضاً فإننا لو نقلناكم نقلة قبل أن يكون النظام . . فالنظام الذى تحكمون به لم يكن موجوداً ثم وجد . . ووجد بموجد ، وأنتم قلتم : إن موجده فلان إذن كل شىء وجد وطرح فى عالم الوجود لابد أن يكون له موجد .

ما دمتم قلتم إنكم أتيتم بنظام لم يكن موجوداً قبل عام ١٩١٧ وهذا النظام لم تجدوه هكذا ، ولكن أوجده موجد ، إذن فكل شىء يمكن أن يكون أثراً لا بد أن يكون هناك مؤثر أوجده .

فالضجة التى قمنا بها وقلنا إنها إسلام ، وانتصر على الفرس والروم ، أيمكن أن يكون قد وجد هكذا بلا موجد ؟

دعوا النظام الذى يحكم حركة الحياة ، وابحثوا فى الحياة نفسها . . هذه الحياة التى توجد على ظهر الأرض فى صور مختلفة ، أيعقل أن توجد هكذا بدون موجد ؟

لو أن إنساناً ما كان فى مفازة ، أى صحراء ، لا يجد فيها ماء ولا طعاماً يقيم حياته ، ثم نام ، واستيقظ ، فوجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب

أظنه قبل أن يتناول شيئاً منها لا بد أن يسأل فكره ، ويبحث فيما حوله ، ليعرف من أمده بهذا ؟ وإن كان معجلا فأكل وشرب حتى شبع وروى ، فإنه لا بد أن يفكر : من هو الذى أحضر له هذا ؟

فلما لم يجد أحداً يقول له : أنا الذى بعثت لك بهذا ، ولكنه سمع صوتاً من بعيد يحل له اللغز ، ويقول : أنا الذى فعلت ذلك ، ولم يوجد أحد يعارضه فى هذه الدعوى . ألا تصح الدعوى له ، ويصبح هو صاحبها ؟

إذن فالدين لم يجىء ، من تلقاء نفسه ، وإنما جاء بواسطة أناس . . إذن فالأثر لا بد أن يسبقه مؤثر .

فلو أنهم نظروا إلى الوجود حولهم قبل أن يوجد منهم هذا النظام ، لوجدوا نظاماً يحكم حركة الحياة قد يكون من صنع البشر ، وقد يكون من بقايا أديان درست ، نقول لهم : تجاوزوا عن ذلك ، وانظروا إلى الأشياء الثابتة فى الوجود ، والتى طرأ عليها النظام .

فالنظام جاء ليحكم حركة الحياة ، إذن فابحثوا عن الحياة قبل أن تبحثوا عن حركة الحياة .

وما دمنا قد استدللنا على أن كل أثر لابد أن يسبقه وجود مؤثر ، وقد سبق وجود نظام لكم تحكمون به حركة الحياة الاختيارية وجود مؤثرين أصحاب مدرسة وضعوا ذلك النظام .

انظروا ما فوق ذلك ، وابحثوا فى المنظم (بفتح الظاء) له ، المنظم له هو حركة الحياة بالنسبة للإنسان ، والإنسان ليس وحده فى هذا الوجود الذى نظمتم له حركته ، لأن الإنسان إنما هو جنس من أجناس كثيرة ، وأنتم نظمتم للإنسان ، ولكنكم لم تنظموا شيئاً لبقية الأجناس غير الإنسان : والنظام الموجود لغير الإنسان له موجد ، وأنتم لم تدعوه ، وهذا النظام فى أخريات أموره إلى الإنسان .

فالإنسان جنس ، وهو جنس أعلى ، ومعنى أنه أعلى : أنه لا يوجد فى الوجود المرئى للإنسان جنس يفوقه فى خصائصه .

أقول : فى المرئى ، لأنه قد يوجد فى الغيبى جنس أعلى من الإنسان . إنما نتكلم عن الإنسان المرئى المشهود فى عالم الملك ، ولا نتكلم عن الأجناس التى توجد فى عالم الغيب ، وعالم الملكوت.لأن ذلك أمر لم نعرفه إلا عن طريق الدين ، وطريق الدين مختلف فيه ، ولهذا لا يصح أن يحتج به عندكم .

إذن فالإنسان جنس أعلى ، والأجناس الأخرى دونه فى التكوين المسخر ، ودونه فى المهمة .

فالإنسان إذا نظر حوله فوجد نفسه متحركاً حساساً ، وجد بجانبه جنساً آخر متحركاً حساساً هو الحيوان الذى هو دونه . . ولكن الإنسان يفخر على الحيوان بأنه مفكر . . ومعنى مفكر : أنه يختار بين بديلات متعددة .

الحيوان لا يختار بين بديلات ، لأنه محكوم لا بنظام بشرى ، ولكنه محكوم بنظام قهرى وجد فى جبلته ، لم يتعلمه أبدا ، والغايات القهرية القسرية دائماً لا بدائل لها ، لأنها أمر واحد .

فأنت مثلا إذا آذيت قطة بأى نوع من الإيذاء فلها رد واحد . . أما إذا آذيت إنساناً فضربته ، فقد يضربك مثل ضربتك ، أو ضربة فوق ضربتك ، أو يوقعك فى شر ، أو يسخر منك ، أو يعفو عنك ، إذن فهناك بدائل متعددة ، والذى يرجح واحداً منها هو الفكر المميز للإنسان عن الحيوان .

والإنسان منا يأكل ، فإذا جاء عزيز عليه ، وعرض عليه الطعام فإنه يأكل معه أيضاً ، ويأتى ثالث فيأكل معه ، ولكن الحيوان بعد أن يشبع لا يمكن أن يأكل أبداً ، لأنه محكوم بحكم الغريزة التى لا تجامل ، ولا بدائل عندها .

فإذا كان الإنسان يختار بين بدائل متعددة ، فما الذى يجعله يختار بديلا على بديل ؟ إنما يختار بديلا على بديل وفق ما يرى من الخير فى البديل الذى يختاره .

وقد يختلف الناس فى تقرير ذلك الخير على حسب أهوائهم ومشاعرهم ومواجيدهم .

إذن فلابد من وجود قوة عليا لتنظم سلطان الهوى ، حتى لا يفسد على الإنسان أمر اختياره ، فتتدخل هذه القوة لتفرض نظاماً لاختيار الشىء الذى إن لم تختره يحصل الاضطراب .

وبعد ذلك تأتى لتجد الحيوان متمتعاً بفضله على جنس آخر تحته ، وهذا الجنس هو النبات ، والنبات يمتاز عن الجماد ، إذن فالوجود جنس فوق جنس ، وتجد كل جنس فى خدمة الأجناس التى فوقه .

فالجماد من الماء والهواء وعناصر الأرض والشمس والقمر كلها فى خدمة النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان ، ولكن الإنسان يخدم من ؟ إنه سيد مخدوم من هذه الأجناس كلها ، ثم لا يجد له فى عالم المرئيات والمحسوسات من يخدمه .

وهذه الأجناس تخدم الإنسان بلا قدرة له عليها منذ كان صغيراً ، أليس من العقل أن نفكر إذن فيمن سخر هذه القوى للإنسان ؟

أى قوة تلك التى تأمر الشمس فتأتمر ؟ وتأمر القمر فيجيب ؟ والماء فينصب ؟

إذن فواجب العقل أن يقف ليبحث عن القوة التى سخرت هذه الظواهر ، لتكون فى خدمته .

فإذا جاء إنسان وصاح : أيها الناس ، إنى قد جئت لكم بحل هذا اللغز . جئت لأخبركم : من الذى سخر هذا ؟ فأبسط الواجبات أن نسمع لهذا الداعى الذى يخبرنا بأن تلك القوة « الله » .

يقول الرسول ذلك ، ويأتى بالمعجزة الدالة على أنه صادق ، وبعد ذلك ، هل قال الرسول : أنا فعلت ؟ لا . هو أيضاً خرج من هذه المسألة . إنه يقول : أنا لم أفعل . .

ولو أنه استغل المعجزة التى لا يستطيع أحد أن يقوم بها ، وقال : أنا جئت بشىء لا يستطيع أحد أن يأتى به ، وأنا الذى فعلت ذلك ، فقد يجد من يصدقه . ومع ذلك لم يقل ذلك أبداً . . بل قال : أنا تلقيت هذا عن القوة التى فعلت .

ولذلك فقد جلى الحق هذه الحقيقة تجلية علمية يتطلبها العقل ويؤيدها فقال :

﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ (١) .

يقول : أنا أعيش بينكم ، فهل جربتم على هذه الأمور المعجزة ؟ إننى لا أدعى ذلك ، ولكنى أنقله عن الله .

ومن العجيب : أن المستشرقين يقولون : لماذا لا يكون القرآن ثمرة نفث عبقرى لمحمد الذى نشأ بين أمة فصيحة بليغة ؟

ونحن نقول هذا أيضاً . . ولكن صاحب الظاهرة نفسه لا يدعيها . فما شأنكم أنتم تنسبونها إليه . والآية صريحة فى نفى هذه الشبهة .

على أن العبقرية لا تكون فى الأربعين ، وإنما تكون فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث .

وإذا كان المستشرقون يقولون : إنه كذب ، وجازت كذبته على أجلاف العرب .

---

(١) سورة يونس آية : ١٦ .

نقول لهم : ما المراد بالكذب ؟ كل كذاب يكذب ، فإنما يحاول أن يحقق بكذبه لنفسه نفعاً لم يكن موجوداً قبل أن يكذب . فما النفع الذى حققه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يدعوه إلى الكذب ؟

إنه عاش كما نعلم فقيراً مسكيناً متواضعاً ، يلبس المرقعة ، ولم يشبع من خبز الشعير ، وكانت النار لا توقد فى بيوته الشهر والشهرين ، فلماذا كذب إذن ؟

ليس للكذب مبرر فى حياته ، لأنه لو عاش على ما كان عليه من ائتمان الناس له فى التجارة قبل البعثة ، لعاش فى يسر ورخاء وعز بين قومه . بل إن المتاعب كلها انصبت عليه بعد هذه الدعوة . . إنه لم يرد لنفسه الحياة ، بل أرادها له واهب الحياة .

وكذلك لم يجعل لأهله حظاً فى دنيا الإسلام . . فقد منع أهله من أخذ الزكاة ، ومنع أهله من أن يرثوه . . وعلى هذا فليس هناك مبرر للكذب أبداً .

والملابسات التى مرت به جعلت الناس قسمين :

قسما آمن به ، وقسما تصدى له . والمتصدى لإبطال دعوى مقابلة يجند لها كل مواهبه لينتصر . وماداموا كفروا وجندوا كل قواهم ، ثم انتهى أمرهم إلى أن أئمة الكفر تصرع ، والباقى يذهب إليه مؤمناً ، وبعد أن كان حرباً عليه يصبح ناصراً له ، كل هذا يدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدع هذه الزعامة ، وإنما أسندت إليه من السماء ، وكانت لها تبعات جسام ، ولم يستفد منها واحد من أهله .

وأيضاً حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أدلكم على الإله الذى خلق ورزق وسخر لكم ما فى الأرض مما لا يدخل تحت قدرتكم . ثم أعلنها فى (لا إله إلا الله) . وأعلنها مدوية فى آذان سادة الجزيرة . أى الذين ما كانت تستطيع أى قبيلة أن تقف فى وجوههم ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم يقولها فى آذان هؤلاء المسيطرين : إن الأصنام التى تعبدونها لا تضر ولا تنفع .

وبعد ذلك ظلت الكلمة منكرة ممن كذبها ، ولم يدع إله ممن يعبدون أنه الإله . . وظلت كلمة التوحيد بدون رد من إله آخر .

إذن فقضية الإيمان انتهت بالصدق وبالواقع . فقولنا لا إله إلا الله بقى بلا معارض من آلهة أو ناس أو من أى جنس منظور أو غير منظور .

وإن لم يكتفوا بهذا نقول لهم : إن الدين الذى جاء قد حل لكم كثيراً من معضلات الحياة . التى واجهتكم بمجهوداتكم أنتم .

علماء السلالات حينما سردوا السلالات وجدوا أنها تكون دائماً فى المستقبل إلى كثرة ، فهم وقفوا عند الظاهرة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا مع الظاهرة تمشياً يهديهم إلى أصل الدين ، لأنهم ليس عندهم فكر فى أن يذهبوا إلى دين . ولو كان عندهم فكر فى أن يذهبوا إلى دين لأصبح من الميسور على الباحثين أن يذهبوا إليه .

نقول لهم : إن العالم سكانه الآن مثلا أربعة آلاف مليون . وقبل قرن من الزمان مثلا كان ١٠٠٠ مليون . وقبله ٥٠٠ مليون . وهكذا ستنتهى إلى أنك كلما أوغلت فى القدم قل العدد .

إذن فالتكاثر ينشأ فى الاستقبال ، والقلة فى القدم . . . ونتدرج فى القلة حتى نصل إلى ١٠٠ نسمة ، ثم إلى ١٠ نسمات ، ثم إلى نسمتين اثنتين ، لأن الواحد لا يكون منه تكاثر .

إذن قد حل لغز التكاثر والسلالات ، ولكن : من الذى حله ؟ الذى حله الدين . لأن الاثنين اللذين كان منهما التكاثر قد تحدث عنهما الدين فى قوله تعالى :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ﴾ (١) .

---

(١) سورة النساء آية : ١ .

وهكذا حل لغز الأنساب والسلالات والتكاثر فى الوجود ، هذه قضية لا يجادل فيها إنسان . . ومن هذه القضية نرد على من قال : إننا من أصل واحد هو القرد ، أو غيره ، لأن كل جنس موجود باستقلاله ، فالدين الذى سوف تقوم عليه الساعة يقول :

﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾ (١) .

فهذا الإله الذى تقولون عنه : إنه خرافى : هل حل لنا هذه الألغاز ، ومحمد بلغها لنا ، وكونكم تنكرون رسالة محمد ، فمن أين جاء لنا بهذه الحلول إذن ، تلك الحلول التى عجز عنها العلم إلى الآن فى القرن العشرين .

وإنما دخلنا معهم فى البحث هكذا ، لنثبت لهم أن كلامهم إنما هو فرار من جدية البحث ، لأنهم نقلوا إلى شىء ، لا يدخل فى باب المناظرة .

(١) سورة الذاريات آية : ٤٩ .

الوحـــى والرســـول

وقد أشاعوا فيما أشاعوا فى كتبهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رجل كان يصيبه الصرع ، وكل ما حدث مما قال : إنه قرآن ، أو إنه حديث قدسى ، أو إنه حديث نبوى ، كل ذلك كان نتيجة الصرع :

والرد على هذا أن نقول باختصار : هل المصروع يفيق إلى ما يكون منه فى أثناء صرعه ؟

إن المصروع يفعل ، وحين يفيق ينكر ما فعل ولا يذكره . ولكن الذى حدث لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه كان حين يأتيه الوحى فى منتهى الهدوء ، وفى منتهى السكون ، وفى منتهى الاستقرار ، ولا يحدث له إلا ما يحدث من اضطراب لا رجوع له .

لم يجربوا عليه فى أثناء الوحى كلمة خرجت منه ، ولا تفرقا فى جوارحه ، وإنما كانوا يلاحظون أشياء كانت تحدث منه وهو فى منتهى الثبات ، وفى منتهى الاتزان ، ومنتهى الاستقرار ، فإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكى كل ما أوحى إليه من الله تعالى .

والذى يدل على بطلان مزاعمهم : أن الوحى كان ينزل عليه بالنجم(١) الطويل من القرآن فيستغرق وقتاً طويلا ليحكيه ويقرأه ، فإذا ما قرأه وكتبه كتبة الوحى ، عاد فقرأه فى الصلاة وحين يقرؤه فى الصلاة كان يقرؤه كما كتبوه عنه ، فهل هناك فى الوجود واحد يستطيع أن يقول كلاماً ، قد يستغرق الساعة فأكثر ، ثم يقال له : أعده كما قلته ، فيعيده كما قاله ؟

لاشك أنه حين قال فكتبوا عنه ، وحين أعاد فكان كما كتبوا ، يقيم الدليل على أنه يصدر عن قضية ذكرها القرآن ، هى قوله تعالى : **﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾** (٢) . لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر .

---

(١) يعنى : المقدار الكبير من الآيات .

(٢) سورة الأعلى آية : ٦ .

هاتوا أى إنسان ليتكلم ربع ساعة ، ثم سجلوا عليه ما تكلم به ، ثم قولوا له : أعد علينا ما تكلمت به ، فإنه لا بد أن يخطئ . . ولكننا نأتى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنجده يسجل ما يقول فى أثناء الوحى ، ويقرؤه فى الصلاة ، فلا نجد فارقاً بين هذا وذاك .

* * *

قالوا : إن محمدا يأتى بكلام ، فمرة يقول : إنه قرآن ، ومرة يقول : إنه حديث قدسى ،ومرة يقول : إنه حديث نبوى . . وصنعوا من ذلك مصدر تشكيك وقالوا : إنه حين كان يروق له أن يقول : ذاك قرآن ، يقول : ذاك قرآن ، وحين كان يروق له أن يقول : ذاك حديث قدسى ، يقول : ذاك حديث قدسى ، وحين كان يروق له أن يقول : ذاك حديث نبوى ، يقول : ذاك حديث نبوى .

نقول لهم : إن الذى أخذتموه لتجعلوه ضد نبى الإسلام هو فى صالح نبى الإسلام . وعادة يترك الله بعض الحق عند الأحمق ، ليدل على حمقه .

نقول لهم : هاتوا لنا فى عالم الإنس إنساناً له موهبة أن يقول ، وما دامت له موهبة أن يقول ، فسجلوا له مميزات أسلوبه ، ثم اسألوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب آخر ، ثم سجلوا له الأسلوب الآخر ، ثم قولوا له : نريد أسلوباً ثالثاً ، فإنه لا يستطيع أن يتبرأ من أسلوبه الأول أبداً .

وذلك لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص فى أداء المعانى ، وما دامت له طريقة فى أداء المعانى ، فإن الأداء سيأخذ تشخصاً لا يمكن أن يبرئ صاحبه نفسه منه .

فإذا ما جئنا بأسلوب قرآنى ، وأسلوب حديث قدسى ، وأسلوب حديث نبوى ، فسنجد أساليب ثلاثة لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب ، بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطباثعه .

فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأساسية ثلاثة أساليب ، بحيث يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب قرآن ، ثم يقول : أنا سأتكلم بأسلوب حديث

قدسى ، ثم يقول : أنا الآن سأتكلم بأسلوب حديث نبوى : إن هذا لا يمكن أن يكون فى طاقة البشر .

إذن فهو كما هو . . القرآن يوحيه الله له ، والحديث القدسى يوحيه الله له . ولكن الفارق : أن القرآن يأتى من الله وحياً معجزاً متحدى به ، ومتعبداً بتلاوته ، والحديث القدسى يأتى وحياً من الله ، ولكنه ليس معجزاً ، ولا متحدى به ، ولا متعبداً بتلاوته .

وأيضاً الحديث القدسى لا تصح بقراءته الصلاة ، ولا يمكن أن يكون إلا بطريقة من الطرق التى لم يجئ بها القرآن . . فمثلا القرآن إنما جاء بطريقة واحدة هى الطريقة الثالثة حيث قال تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ (١) .

الوحى هو : إعلام بخفاء كما يقول العلماء . وهو الإلهام ، وليس المراد به جبريل . والمعنى : لا يمكن لبشر أن يتلقى عن الله ، وأن القدرة الممكنة لا يمكن أن تتلقى عن القدرة الواجبة المطلقة ، والطاقات حين تنتقل من قوى إلى ضعيف ، لابد أن توجد بينهما وسائط . . . هذه الوسائط تأخذ من القوى لتعطى الضعيف . فالقوة الواجبة لا يمكن لأحد أن يتحملها .

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يتلقى عن الله ، إما إلهاماً ، وإما أن يتكلم الله من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء .

وهذا كل ما يمكن أن يكون من الاتصال بين الله وبين رسله ، مرة يجيء بالإلهام ، ومرة يجيء بكلام من وراء حجاب كما حدث ليلة الإسراء ، أو كما حدث لموسى حين كلمه ربه . ولكن القرآن لا يمكن أن يجيء إلا

---

(١) سورة الشورى آية : ٥١ .

من طريق واحد ، هذا الطريق الواحد هو : أن يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء :

إذن فالقرآن لم يثبت إلا من هذا الطريق . . . أما الحديث النبوى والحديث القدسى فيثبتان بالطريقتين الأخرين .

ولماذا خص الله القرآن بهذا الطريق ؟

لأن القرآن معجزة متحدى بها ، فلا بد أن يوجد وحى من الله ، ليكون إما إيذاناً بأن تتغير طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الشيء ، حتى يمكن أن يتقبل من الوحى ، وإما أن يتمثل له الوحى أحياناً كرجل ، وحينئذ تكون المسألة خفيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بقى على طبيعته ، والوحى هو الذى انتقل عن طبيعته إلى طبيعة رجل .

وذلك كما حدث وجاء ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لإاسلام والإيمان والإحسان ، فأجابه ، وعجب الحاضرون ، كيف يسأله ويصدقه ؟ مما يدل على أنه كان يعرف الجواب مقدماً ، وإلا لما حكم على كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق ، ولذلك زال العجب حينما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم» .

إذن فالوحى يتشكل ، وقد يحدث تغير فى طبيعة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يتمكن من الأخذ عن الوحى ، ولذلك يقول : إنه يسمع حول رأسه مثل دوى النحل . وشهد الناس أن الوحى كان إذا جاءه وهـو على الناقة بركت من شدة الوحى وثقله ، وأنه كان إذا أوحى إليه ويده على رجل صاحب له ثقلت عليه حتى تكاد أن ترضها ، وكان يشتد عليه العرق فى اليوم البارد ، وكل هذا يدل على أن هناك تفاعلا حصل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إيذاناً بأن جبريل قد جاء ليقول له شيئاً :

ولكن الحديث القدسى والحديث النبوى يثبتان بالطريقين الآخرين : **الأول والثانى مما ذكر الله فى الآية الكريمة .**

ولذلك يجب أن نفهم أن الاختلاف بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث القدسي وأسلوب الحديث النبوى لا يجوز أن يكون مصدر تشكيك ، وإنما يجب أن يكون دليل إيمان بصدقه صلى الله عليه وسلم ، وبأن الرسول يعطينا ثلاثة أساليب للأداء بحيث لا يشترك أسلوب مع أسلوب ، ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى ، بل لبعضها خواص التحدى ، أما الحديث القدسي والنبوى فليس لهما خواص التحدى ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فيما نقله جبريل : عن رب العزة . أو يقول : قال الله عز وجل ، لنفرق بين حديث نبوى وحديث قدسي ، ولذلك رأى بعض العلماء أنه لا يكاد يوجد بينهما فارق إلا أن الحديث القدسي توقيفي ، والحديث النبوى بعضه توقيفي وبعضه توفيقي .

إن الله اصطفى بعض خلقه وأعدهم على عينه ، حتى يكونوا أهلا لتلقى الوحى من السماء ، ليرحمهم جميعاً ، بأن جعل مشقة التلقى عن الأعلى مقصورة على هؤلاء المختارين ، فلو أن الله خاطب كل إنسان لكان قد تعرض لهذه التغيرات ، ولكنه قصر هذه المتاعب على هؤلاء المصطفين الأخيار .

ويدل على هذه المتاعب قوله تعالى :

﴿ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك﴾(١)

حينما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت هذه السورة ، لأن الوحى كان يجيء بمشقاته ، وكان يجيء بتبعاته ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد أن يسرى عنه : « دثرونى . . دثرونى » وكان يرجف كأن فيه شيئاً من الحمى :

إذن فهذه متاعب تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأخذ عن أمته الوحى ، ولو أن الله أراد أن يخاطب الناس كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان فى ذلك العنت كل العنت على الجميع : ولكن الله

---

(١) سورة الشرح الآيات : ١ – ٣ .

اصطفى واحداً لحمل هذه المسألة . ومع هذا الإعداد فقد أصابه من المتاعب ما يقول الله فيه : « ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك » :

إذن فالشيء الذى كان يأتى أولا بالمشقة قد اعتاده الرسول ، حتى كانت المتاعب فى المرة الثانية أقل من الأولى . ولذلك قال الله تعالى فى سورة أخرى :

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ (١) .

وذلك لأن العلاقة بين الوحى وبين الرسول كانت صعبة ، ولكنه بعد أن كان يفصم عنه الوحى ، كان يجد حلاوة ما ألقاه الله إليه ، فيعجبه ماأخذ، ولذلك أوجد الله فيه طاقة اشتياقية . والطاقات الاشتياقية تهضم كثيراً من المتاعب ، فتجعله يتمنى أن يحدث له ذلك مرة أخرى . .

هذا التمنى يرسمه لنا بعض الفلاسفة بصورة فيقول : هب أنك رأيت شجرة من التفاح فى أعلى الجبل ، والجبل وعر ، والصعود إليه صعب ، ولكنك تحملت المشقة فوقعت مرة ، وتشبثت بالصخر مرة ، حتى وصلت إلى الشجرة ، وأخذت منها ثمرة ، فأكلتها .

فحين تأكل يحدث لك شوق أن يحدث لك مثل ذلك . هذا الشوق يوجد لك طاقة ثانية فوق طاقتك الأولى ، أو ينسيك المتاعب . . فإذا ما أغراك فإنك تشتاق إلى تعب تعقبه لذة . أما فى الأولى فأنت تعبت بعد أن أدركت لذة ، فهذه اللذة التى أدركتها بعد تعبك الأول هى التى سهلت لك التعب الثانى.

فالرسول حين نزل عليه الوحى أول مرة فالثمرة لم تأت بعد . فلما جاءته الثمرة جعل الله له فترة توجد له طاقة من الشوق ، وطاقة من الحنين ، إلى حلاوة ما يصله من الله . وهذه الحلاوة يسرت له كثيراً من المتاعب ولذلك لم يعد يقول بعد الوحى : « دثرونى . . دثرونى » . ولا « زملونى زملونى » . ولا ترجف بوادره ، ولا يقول : « فغطنى حتى بلغ منى الجهد »

---

(١) سورة الضحى آية : ٤ .

فقول الله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ (١) .

معناه : إنك قد أخذت المتاعب الأولى ، وهذه المتاعب ستيسر لك الوحى فى المرات التالية .

إذن فالحق سبحانه وتعالى إنما يعطى لرسوله صلى الله عليه وسلم من فيضه عطاءات متعددة .

عطاء هو قرآن يقول عنه له : تحد به القوم . وعطاء آخر هو أحاديث قدسية ، ليست للتحدى ، وعطاء ثالث هو أحاديث نبوية ، يفوضه فيها . ولذلك ليس الحديث النبوى كله كلام . بل إن رأى غيره تكلم فسكت ولم يرد عليه فهذا حديث نبوى . وإن فعل واحد فعلا فسكت فهذا حديث نبوى . والحديث النبوى أحياناً يكون توقيفياً ، وأحياناً يكون توفيقياً ، والحديث القدسى توقيفى من الله ، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يعرضه يقول : عن رب العزة ، أو : قال رب العزة ، دلالة على أنه من الله . . ومن الحديث نفسه يدل على أنه من الله . والله هو المتكلم . أما الحديث النبوى فمنه ما ألهمه الله أن يقوله ، ومنه ما قاله بتوفيق الله تعالى .

---

(١) سورة الضحى ، آية : ٤ .

الرســـول والتشريع

ومماوصلني : أنهم يقولون لنا عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم : أنتم تقولون إن محمداً لا ينطق عن الهوى . وأنتم تعلمون أن الله غير كثيراً من أحكامه ، فإن كان وحياً فى الأول وفى الثانى فقد تعارضا ، وإلا فقد أخطأ لأنه تبع الهوى .

ويقولون لنا : أنتم تقولون : إن القرآن يقول :﴿ **إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ (١) ثم يأتى القرآن ويعدل ، وما دام قد عدل ، فليس بوحى .

نقول لهم : إن عندكم غباء . أو عندكم سوء نية ، وتلاعباً بالألفاظ للوصول إلى هدفكم .

انظروا إلى معنى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾(٢). الله فوضه وائتمنه على أن يقول . بدليل أنه قال له فى القرآن :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٣) .

إذن فقد جعل للرسول تفويضاً أن يقول ما يشاء . . وكان بعض العلماء إذا سئل عن حكم لا يوجد فيه نص من القرآن ، وإنما هو من فعله صلى الله عليه وسلم ، فالسائل يقول للعالم : هات لى نصاً من القرآن على أن الأوقات التى فرضها خمسة ، أو أن الظهر أربع ركعات ، فكان العلماء يقولون : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٣) .

الله شرع الصلاة إجمالا ، وترك للرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلها عدد ركعات ، وعدد أوقات ، وحركات ، وكلاماً ، كل ذلك فوض

---

(١) سورة النجم آية : ٤ .
(٢) سورة النجم آية : ٣ .
(٣) سورة الحشر آية : ٧ .

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضى قوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

ونقول لهؤلاء : هاتوا لى نصاً من دستوركم يقول : إن الموظف الذى يتخلف خمسة عشر يوماً يفصل . لا نص فى الدستور يقول هذا ، ولا حق للمفصول أن يقول : إنكم خالفتم الدستور ، لأن الدستور ينص على القواعد العامة ، ويترك التفصيل الجزئى للسلطة .

فالرسول يجىء له أمر إجمالى من الله ، ثم يقول لنا : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . وهذا ما نسميه باللائحة التنفيذية ، أو المذكرة التفسيرية ، أو القوانين المكملة .

وهناك نزعة جديدة بين المسلمين تقول : لا نعترف بالمذاهب الأربعة ، لا الشافعى ولا أبى حنيفة ، ولا مالك ، ولا أحمد ، كل هؤلاء لا نعترف بهم . ثم بعد ذلك تطاولوا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نقول لهم : أنتم تصلون الظهر أربعاً ، والعصر كذلك ، والمغرب ثلاثاً ، وهكذا ، فهاتوا أنتم دليلا على ما فعلتم من القرآن . حينئذ لا يستطيعون أن يأتوا بالدليل .

نقول لهم : هذا هو الدليل : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا﴾ هذا هو الدليل على أن ما جاء فى القرآن إجمالى لا يجىء به الرسول صلى الله عليه وسلم تفصيلا .

والله تعالى يقول : **﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ (١)** .

فكرر الأمر بالطاعة للرسول وهناك : **﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ (٢)**.
ومرة أخرى : **﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ (٣)** فقط .

---

(١) سورة المائدة آية : ٩٢ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٢ .
(٣) سورة النور آية : ٥٦ .

فتشريعات الله التي أمرنا الحق أن نطيعه فيها : تشريع اشترك فيه الله والرسول ، الحق شرع ، والرسول شرع أيضاً ، فهذا نطيع فيه الله ونطيع فيه الرسول .

وتشريع آخر شرعه الله وبينه الرسول ، فهذا نطيع فيه الله والرسول :
وتشريع آخر لم يشرعه الله ، وإنما شرعه الرسول وانفرد به وهذا نطيع فيه الرسول .

إذن فمعنى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ . أن الوحي إما أن يجيء بالأمر جملة وتفصيلا ، وهذا ليس للرسول فيه عمل . . . وإما أن يجيء الأمر جملة ، ويعطي الله قضيته تفويضية للرسول ، فى أن يشرع ، كما قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

فإن حكم الرسول حكماً ، ثم جاء الحق وعدل له فيه ، وصوبه له ، فهذا دليل على أن ذلك فيما فوض الله فيه الرسول ، فحكم فيه بما تقتضيه الفطرة الإيمانية البشرية ولكنه لم يكن هناك حكم من الله فعدل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه :

هذا هو معنى ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ : لم يكن هناك حكم من الله ، ولكنه بمقتضى التفويض من الله قال بمقتضى الفطرة الإيمانية البشرية . وبعد ذلك يدلنا الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق فى الكلام عنه ، فترك رسول الله يتكلم بالفطرة البشرية الإيمانية ، ولكن الله أعلى حكمة من الرسول ، فيعدل له ليعرفه أنه لم يفوضه ويتركه لبشريته ليقول ما يشـــاء ، فإذا جاء بشيء تحكم به البشرية على مقتضى حكمتها ، يعدل الله له ، فإذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ربي عدل لى الحكم ، دل ذلك على أن الرسول صادق فى الكلام عن الله ، وأنه لا عزة له من الله ، ولا كبرياء له أن يصوب له ربه :

فكل ذلك يثبت أنه مأمور ، ولكنه حتى فى حالة عدم موافقته للحق لا يقال : إنه أخطأ ، لأن الخطأ : أن توجد عندك قاعدة صوابية فتخالفها ،

فيحاول المصحح أن يعدل لك : بمعنى أن يقول لك : إن قولك لا يتفق مع القاعدة الصوابية التى أعطيتها لك .

القاعدة مثلا أن الفاعل مرفوع . فإذا نطقه الناطق منصوباً صوبناه له ، وقلنا : إنه أخطأ فصوبناه ، لأن عنده قاعدة صوابية .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم فى المواضع التى عدلت له لم يكن عنده فيها حكم من الله . بل هو يقول بمقتضى التفويض ، وبمقتضى الفطرة الإيمانية ولكنه إن وافق الحق أقره ، وإن لم يوافق الحكمة العليا عدل له الحكمة البشرية بالحكمة الربانية .

وقد بحثنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فوجدنا أنه مأمون ، لم يستح أن يقول بعد ذلك : صوبنى ربى . مما يدل على أنه مأمون على كل ما يقول .

إذن فقول الله تعالى : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ معناه أنه لم تكن عنده قضية فخالفها ليخدم هواه .

ولنأخذ قضية زيد بن حارثة . . زيد بن حارثة كان عبداً لخديجة رضى الله عنها ، ووهبته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء أبوه وقد عرف أنه فى مكة ، وأراد أبوه أن يأخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيره رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أن يذهب إلى أبيه ، وبين أن يبقى معه ، فاختار أن يبقى معه .

لقد قال زيد وهو حب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنت لأختار على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً . ولم يرض أن يذهب مع أبيه .

فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنان البشرى أن يكافئ زيداً على اختياره له ، فدعاه : زيد بن محمد ، بعد ما كان اسمه زيد بن حارثة .

فالله تعالى لم يوافق على مسألة التبنى هذه ، وأراد أن يبطلها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعند غيره ، فأنزل قوله تعالى :

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٥ .

أكان هناك حكم بألا يعدل عن انتساب الأبناء إلى الآباء ، ثم جاء محمد وعدل عن هذا الحكم ليقول زيد بن محمد ؟

لم يكن هناك حكم ، وإنما صنع محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ليرد جميل زيد حين رغب عن أبيه ، وأحب البقاء معه .

ولذلك فقد أنصف الحق — وهو الحكيم — رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـــال :

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ .

وأقسط أفعل تفضيل ، من القسط ، وهو العدل ، يعنى هو أعدل عند الله يعنى أكثر عدلا . يعنى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن فعله علماً وجورا ولو أنه تعالى قال : ادعوهم لآبائهم فذلك هو القسط عند الله ، لكان فعل محمد جوراً وظلماً . ولذلك قال : أقسط .

فكأنه تعالى قال لرسوله : أنت فعلت القسط والعدل ، لأنك أردت مكافأة زيد على حبه لك ، ولكن أنا عندى قضية أعدل « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » .

فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم بدعوته زيداً : زيد بن محمد عادل ، ولكن الله أعدل ، والرسول لا يستنكف أن يقول : لقد عدل الله الحكم . وعلى كل حال فهو لا ينطق عن الهوى .

ونقول لهم أخيراً : هاتوا لنا مصروعاً مثل صرعته ، ينشىء لنا هذا النظام الهائل ، الذى يحكم حركة الحياة كلها ، من قمة لا إله إلا الله ، إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فهل يعقل أن يكون هذا النظام الهائل حصيلة الصرع كما تقولون ؟

إنه محض كذب وافـــتراء . .

زوجـات الرسـول

وبعد ذلك يتطرقون إلى أشياء أخرى ، هذه الأشياء تتعلق بشخصية الرسول ، وقد وضعوا قواعد ، وحملوها على الرسول ، ثم جعلوها محل مؤاخـذة ولـوم .

ونحن نقول لهم : أنتم تخلطون القضايا ، لتقيسوا بها كمالات رسول الله ، وتقيسون كمالاته بقضايا تصنعونها لكمالات من عندكم . وما دمنا آمنا به رسولا ، فنحن لا نؤمن به رسولا ، ثم نضع له مقاييس الكمال من نفوسنا ، لنزن الأمور التى فعلها على مقاييسنا ، ولكن الكمال ما فعله .

أنا آمنت به رسولا ، فالكمال ، ما فعل وما لم يفعل . .

الله قد ائتمنه على أن يبلغ منهجه . . وما دام قد ائتمنه على أن يبلغ منهجه ، فأمانته على نفسه أولى به من أمانته على أنا :

إذن لا تناقش أشياء على موازين أنت تدعى أنها موازين كمال ، ثم تنسب فعل رسولنا إليها ، لتقول : إن هذه الكمالات غير ثابتة .

ومن هذه الأشياء مسألة تعدد زوجات الرسول .

ما دمت قد كذبته رسولا ، فلماذا تؤاخذه ، فعل أم لم يفعل . . الذى يناقش فى أنه فعل أو لم يفعل هو من نستكثر عليه أن يفعل لأنه رسول . . فالقضية الأصلية إذن أنه ليس رسول عندكم ، فكان يجب ألا تلوموه على تصرف ، ولذلك كان النقاش بيننا وبينك غير متكافئ ، لأنك تنظر إلى فعل معزول عن رسول ، ونحن ننظر إلى فعل منوط برسول .

نقول : هل الرسول جاء والناس يعددون ، أو جاء ليشرع التعدد فى الزوجـات ؟

بل الرسول جاء قوم يعددون ، فهو حين عدد لم يكن بدعاً بينهم فى هذا

التعدد ، لأن هذه المسألة إن سبقه فيها رسول لم يتزوج ، فقد سبقه فيها رسل كثيرون تزوجوا أعداداً متعددة ، فلماذا نجعل الواحد هو المرجح ، ولا نجعل الكثرة هي المرجحة ؟

الواحد إنما جاء لحكمة ، والسابقون قبله عددوا لحكمة . فالرسول لم يشرع التعدد ، وإنما جاء والتعدد نظام قائم له ولكل الناس .

لكن الأمر يختلف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى من تبعه من المؤمنين ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء لمن تزوج أكثر من أربعة ، فأمره أن يمسك أربعاً ، ويفارق الباقي . هذا كلام واضح بالنسبة إلى من تبعه من المؤمنين .

ولكن لننظر : هل كانت الإباحة لأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم إباحة لمعدود ، أو كانت إباحة لعدد ؟

الإباحة لأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لعدد . . . أيا كان هذا العدد ، أربعة ، فإن ماتت واحدة تزوج غيرها مكانها ، إن طلق واحدة يأتي بواحدة مكانها ، إن طلقهن جميعاً فله أن يتزوج أربعاً غيرهن .

إذن فتابع الرسول صلى الله عليه وسلم له العدد ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس له العدد ، وإنما له المعدود .

والفرق بين العدد والمعدود : أن المعدود إنما أبيح للرسول بذواته ، فإن ماتت واحدة لا يأتي بواحدة مكانها ، وإن مات الأربعة عند الرسول فليس له أن يتزوج ولا واحدة . إذن فقد أبيح له المعدود ، فهن بخصوصهن .

قال الله تعالى :

(لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) (٢) .

---

(١) يريد بالواحد السيد المسيح عليه السلام ، لأنه لم يتزوج . . وقد كان عدم زواجه راجعاً إلى أنه لم يكن له محل إقامة ، بل كان دائم الترحال ، لا يستقر في مكان إلا ليرحل عنه كما تتطلبه دعوته عليه السلام . (عطا)

(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٢ .

ذلك حكم ليس لتابع من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم . إذن فالعدد عند تابع محمد قد يدور إلى أربعين . . ولكن العدد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير دائر ، لأنه محصور فى هؤلاء ، فإن من لا يحل له أن يتزوج غيرهن .

الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج ، واجتمع عنده من الزوجات تسع ، وحين شرع الله ذلك العدد ، فالرسول صلى الله عليه وسلم إمـــا أن يحتفظ بأربع ويسرح الخمس ، وحين يسرح الخمس فإنهن أمهات مؤمنين ، وأمهات المؤمنين محرمات على سائر المؤمنين .

إذن فلو سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس نساء ، لبقين أى الخمس بدون زواج ، لأنهن محرمات على الجميع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين يشرع لأمته أن يمسكوا أربع ويسرحوا الباقى فهذا الباقى لكل منهن أن تتزوج من رجل آخر .

ولكن ذلك بالنسبة إلى الرسول ممنوع ، لأن زوجاته محرمات ، إذن فليس لهن إلا أن يبقين زوجات لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً فالمعنى الذى يريدون أن يغمزوا به رسول الله صلى الله عليـــه وسلم مرفوض فى تاريخه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سن الخامسة والعشرين تزوج امرأة تكبره بخمسة عشر عاماً ، وهذا على خلاف القاعدة ، فى أن الرجل يتزوج دائماً بمن دونه فى العمر ، وظل مع خديجة إلى أن ماتت ، ولم يتزوج عليها .

كان ولابد أن يتزوج بمن تقوم بمسائله ، فتزوج سودة بنت زمعة ، امرأة تقوم بواجب الزوجية ، وتزوج عائشة ، وهى فى السادسة من عمرها ، ويدخل بها وهى فى التاسعة ، فالسياق الجنسى أو العاطفى ممنوع هنا .

بعد ذلك نأتى لنجد فى نسائه من تتبرع بليلتها لضرتها ، فهل تتبرع بليلتها إلا بعد عدل الرسول ؟ ثم تأتى هى وتتبرع بليلتها ، ومعنى هذا أنها فى ذاتها لا تصلح أن تكون امرأة يقضى منها الرجل إربته ، فكأنها لم ترد إلا أن تكون أماً للمؤمنين . ومن نسائه فى الجنة بصفته وساماً من الأوسمة .

كذلك تأتى إلى أم سلمة ، وعندها عيال ، وتقول لرسول الله : إنها لم يعد لها أرب ،ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعلها أماً للمؤمنين . ويريد أن يلقن الناس درساً فى أن الإنسان إذا أصيب فى عزيز لديه أن يستقبل المصيبة بما علمنا رسول الله ، فنقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم آجرنى فى مصيبتى ، واخلفنى خيراً منها .

حين مات أبو سلمة — وكانت أم سلمة تحبه — قيل لها : قولى ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : أهناك خير من أبى سلمة ؟ فقد استبعدت أن يكون هناك من هو خير لها من أبى سلمة . فرسول الله علمها أن هذا الدعاء لابد أن يأتيها بخير من أبى سلمة . وتزوجها رسول الله ، وأصبحت أماً للمؤمنين .

فكل زوجة من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم لها قضية إيمانية يريد الرسول أن يثبتها فى المؤمنين . . حفصة مثلا يعرضها عمر على أبى بكر وعثمان ، ويرفضان الزواج بها ، ويحز ذلك فى نفس عمر ، فيتزوجها رسول الله .

كل هذا يدل على أن لكل زوجة قصة . . . ويجب أن يلحظ أنه لم يوسع عليه فى ذلك ، بل إنه ضيق عليه .

ذلك ما يمكن أن ترد به على من يقول ذلك فى رسول الله ، ويجب أن نفتح المجال لبحث هذه الأشياء ، لأنهم حين تكلموا عن رسول الله هكذا ، فقد دفعوا المسلمين إلى بيان حقيقة هذه المسألة ، فربما كان فى نفوس المسلمين منها شىء .

إنهم يريدون أن يشوهوا نبي الإسلام ، ولكنهم فى الواقع خدموا نبى الإســلام .

استغلال قضايا المـــرأة

وأيضاً يدخلون علينا فيقولون : إن الإسلام دين جاف جامد ، يريد أن يجمد نصف المجتمع ، وهى المرأة .

يقولون : إن المرأة ليس لها حركة فى الحياة .

نقول لهم : أخطأتم ، لأنكم لم تفهموا الإسلام .

ويأتى بعد ذلك قوم ليدافعوا عن الإسلام ، فيحاولوا أن يوجدوا فى تصرفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبرر التصرفات التى توجد من المرأة الآن فى العصور الحديثة .

فكلما خرجت المرأة لعمل أو لشىء يقول هؤلاء : نعم ، لقد خرجت المرأة للجهاد ، وكذا وكذا وكذا ، ولم يدعوا كل حدث فى مجاله وإطاره وضرورته .

يقولون : لقد خرجت المرأة للجهاد والحرب والحج ، فكيف تتجمد فى العصر الحديث ؟

نقول : يا أخى ، كانت تمرض ، وكانت تداوى الجرحى ، وهذا نوع من الاختناق فى العمل له نظير عندنا ، لأن الاختناقات ، حينما تكون محوطة بشىء من العقيدة التى تحول بين المرأة وبين مضار الاختلاط فلا مانع. وهل يظن بالمحاربين وهم فى المعركة سوء من ناحية المرأة ؟

فى الحج اختلطت المرأة بالرجل فى الطواف وغيره . وقد تطوف بجانبك امرأة وأنت لا تدرى . . قل لى بالله ، الرجل الذى جلس طيلة حياته يعد لأن يحج ليكفر عن خطاياه ، أهو فى هذه الحالة يفكر فى امرأة أو فى غيرها من الشهوات ؟

إن نفسه فى هذا الموقف لا يمكن أن تفكر فيما يفكر فيه الرجل حين يجتمع مع امرأة فى مكان ما .

وكذلك الاحتجاج بالحرب . هذه الحرب فيها قتال ، فيها قتلى ، وفيها

جرحى ، وفيها فزع ورعب ، ومع ذلك ظلت المرأة تؤدى واجبها فيها . وهى تحاول جاهدة ألا تأخذ من الموقف أكثر من الضرورة فيه .

ألم تذهب صفية بنت عبد المطلب وتقتل الكافر الذى امتنع حسان بن ثابت عن قتله ، فلما قتلته قالت له : انزل فاسلبه ، أى خذ سلبه ، أى ما معه من الغنيمة ، فوالله ما منعنى عن أن أسلبه إلا أنه رجل .

فلقد قتلته وحين قتلته فقد الحس والحركة ، أما كان للقاتلة أن تنزل إليه وتأخذ ما معه ، وانتهت المسألة ؟ ولكنها مع ذلك تحرجت وأرسلت رجلا ليأخذ سلبه ، واستعملت الضرورة بقـــدرها ، إنما نحن نريد أن نجعل من الضرورة بقدرها ضرورة بغير قدرها . هذا فى القتال .

وفى غير القتال يقولون : والمرأة كانت تعمل كذا ، وتعمل كذا ، ويحددون أسماء بنت أبى بكر ، نقول : تعمل ماذا ؟ يقولون : كانت تخدم فرس زوجها ، وتعلفه وتسقيه وكذا وكذا .

نقول : أرأيتم كانت تعمل ماذا ؟ وتعمل لمن ومع من ؟ إنها تعمل لزوجها ، فى رعاية آلة .

فالمرأة تعمل مع زوجها ، وتعمل مع أبيها ومع أخيها لأنه من محارمها ، ألا تعمل ذلك مع بنات جنسها ؟

إذن فالمرأة تعمل فى حدود مجالاتها فقط .

وأعداء الإسلام أرادوا أن يستعدوا نساء الإسلام ضد الإسلام ، وأن يجعلوا من المرأة سن حربة ليطعنوا بها كل مقومات الإسلام التى جاءت لتحفظ العرض على الناس جميعاً .

وقضية المرأة يجب أن تدرس فى إطار من الواقع التكوينى الخلقى ، قبل أن تدرس من الناحية الأخلاقية . فيجب أن نقارن بين وظيفة المرأة فى الإسلام وبين لياقة تلك الوظيفة بالتكوين الخلقى لها .

وعلى هذا إذا أردنا أن نبحث المسألة بحثاً له أرضية من الواقع نقول : المرأة نوع من جنس ، أى أن هناك جنساً يجمعها هى والرجل ، هو جنس

الإنسان . . والإنسان كما نعلم فى التعريف المنطقى « حيوان ناطق » وناطق ، يعنى : مفكر . ومفكر يعنى له آلة يختار بها من البديلات .

وحركة الحياة لا تتطلب عملا واحداً يعمله النوعان من الجنس ، ولكنها جعلت لكل نوع مجالا من العمل . وإذا نظرنا إلى المتحرك وجدنا أنه هو الذى يقوم بالحركة ، والحركة دائماً تحتاج إلى زمان ، وإلى مكان ، أى أن كل حركة لابد لها من ظرف تحدث فيه ، والظرف إما زمان ، وهو ظرف غير قار ، يعنى : ماض وحال ومستقبل ، والمكان ظرف قار ، يعنى مكان ثابت ، والحدث يحتاج إلى الظرف القار وغير القاز .

وما دام الزمان والمكان ظرفين للحدث ، والحدث لابد أن يكون من متحرك ينفعل بالحدث ، إذن لابد من ثلاثة أشياء : متحرك ، وحركة ، والحركة تقتضى زماناً ومكاناً .

ولو نظرنا إلى الزمن عندنا لوجدناه ينقسم بالعلامة إلى ليل ونهار . وحين ينقسم الليل إلى جزئيات ، والنهار إلى جزئيات ، فجزئيات النهار يجمعها قاسم مشترك هو الضوء ، وجزئيات الليل يجمعها قاسم مشترك هو الظلمة . والضوء يريد الحركة ، والظلام يريد السكون .

إذن فالمتحرك يحتاج إلى زمان ، والزمان ينقسم إلى قسمين : قسم يتحرك فيه الإنسان ، وقسم يستريح فيه الإنسان من العمل ، ولذلك جعله الله سكناً .

قال تعالى : ﴿ وجعل الليل سكنا ﴾ (١) .

والسكن لا يكون إلا عن حركة ، فالليل سكن ، والنهار حركة .

فكأننا نستريح فى الليل الذى جعله الله للسكن ، ليمكننا أن نستقبل النهار الذى جعله الله للحركة ، والذى يعقب الليل . فما لم نسكن لا نستطيع أن نتحرك .

إذن فالسكون له مهمتان :

---

(١) سورة الأنعام : ٩٦ .

مهمة تريح من تعب حركة اليوم .

ومهمة تعين على حركة الغد .

فالذى يتحرك نهاراً ، ولا يسكن ليلا ، لا يستطيع أن يعمل بعد ذلك عملا ، والله تعالى هو خالق الإنسان ، وخالق الزمان ، وخالق المكان ، هو الذى جعل الليل للسكن ، وجعل النهار لنبتغى من فضله . فهل خرج الليل من كونه ظرف زمان ؟ وهل خرج النهار عن كونه ظرف زمان ؟ إذن فهما زمان انقسم إلى قسمين ، إلا أن لكل قسم منهما مهمة . فإذا حاولت أن تدخل قسماً منهما فى مهمة الآخر ، فقد أفسدت نظام التكوين السماوى .

إذن ساعة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى** ﴾ (١) .

فيغشى يعنى : يغطى الكون حتى يسكن الناس فيه . وتجلى ، يعنى : ظهر ، والأشياء تصبح واضحة للناس ، حتى يستطيعوا العمل فيها :

يأتى بعد ذلك ويقول :﴿ وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى ﴾(٢)

يعنى : لكل واحد مجال فى سعيه . يعنى : يا ذكر لك مهمة ، ويا أنثى لك مهمة . . . فإياك أيها الرجل أن تأخذ مهمة الأنثى ، وإياك أيتها الأنثى أن تأخذى مهمة الرجل . . وبينكما قدر مشترك ، هذا القدر المشترك أن كلاكما إنسان مفكر ، يعنى له عقل يخاير بين بديلات .

فإذا حاولت المرأة أن تأخذ خيار بديلات الرجل ، أو حاول الرجل أن يأخذ خيار بديلات المرأة ، نقول له : ستقف أمامك بنية الأشياء التكوينية . ومعنى بنية الأشياء التكوينية : الطبيعة التى خلقت عليها .

فهب أن المرأة أخذت عمل الرجل ، أيمكن للرجل أن يأخذ عمل المرأة ؟ لا يمكن ، لأن للمرأة مهمة هى أنها وعاء للإنسان ، تحمله ، وتلده ، وترضعه ، وتحضنه ، فهل يمكن للرجل أن يقوم بهذه المهمة ؟ إذن البنية تقف :

فنقول : إذا أردت أن تسوى نفسك بالمرأة أو أرادت المرأة أن

---

(١) سورة الليل آية : ٢،١ .

(٢) سورة الليل آية : ٤،٣.

تسوى نفسها بالرجل ، ظلت مسائل تكوينية طبيعية منوطة بالمرأة . إذن أنت صعبّتها على المرأة .

وأيضاً إذا أردنا أن ندرس العملية التكوينية ، نجد الرجل يتميز بالصرامة . ومعنى الصرامة : أن طاقة العقل تتحكم فى تصرفاته ، وطاقة العاطفة تكاد تكون على قدرها فيه . والمرأة ستتعرض لمهمة تتطلب العاطفة قبل العقل ، والرجل سيتعرض لمهمة تتطلب العقل قبل العاطفة .

وهذا نلاحظه نحن فى حياتنا اليومية . . فالرجل المكدود حين يجىء ليرتاح ليلا ، ماذا يكون موقفه من المرأة حين يسمع طفله يبكى ؟ هو حينئذ لا يرى إلا أن طفله يفسد عليه نومه ، ويعكر عليه راحته ، وربما انطلق بألفاظ يسب بها الطفل ، ويسب أم الطفل ويقول لها : أخرسى هذا الطفل ، لأنى أريد أن أستريح :

هذا هو منطق العقل ، لأنه يريد أن يستيقظ فى نشاط ، ليقوم بعمله من أجل الطفل وأم الطفل .

فالرجل يريد أن يخرسه ، أما المرأة فتذهب به بعيداً لتهدهده ، وهذا هو منطق العاطفة ، لأن الولد لايستطيع ألا يبكى ، ولا نستطيع نحن أن نقنعه بألا يبكى ، لأننا لانعلم ما الذى يبكيه ويؤلمه .

إذن فالطفل يريد رقابة حنان ، وقسطاً من العاطفة ، وهذه العاطفة تصطدم مع منطق العقل فى الرجل .

وقد يأتى الولد الصغير ، ثم تضطره الظروف أن يقضى حاجته وهو أمام الطعام ، فماذا يكون الموقف ؟ أبوه يغضب ويشتم ويسب ، ولكن الأم تأخذه بعيداً ، وتنظفه بيد ، وتأكل بالأخرى .

إذن فطاقة الحنان فى المرأة . . وطاقة العقل فى الرجل .

إذن لايصلح الرجل لأن يتسلط على الطفل فى هذا الوقت .

ولذا قلنا : يجب على الناس أن يفهموا أحاديث الرسول صلى الله عليه

وسلم التى تقول : « خلقت المرأة من ضلع أعوج ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته » . وكسره لايكون إلا بالطلاق : أى : إن أردتها معتدلة فلا تعاشرها .

وذلك لأن مهمتها حنان وعطف ، فشبهها بالضلع ، والضلع معوج ، واعوجاجه يجعله صالحاً لمهمته ، فلو كان الضلع معتدلا ما صلح لمهمته ، لأنه خلق هكذا ليحمى قفص الصدر بما فيه من أعضاء لينة رقيقة . إذن فعوجه لأنه مؤد لمهمته .

والناس يفهمون خلقها من ضلع أعوج على أنه سبة لها . لا . هذا مناسب لمهمتها ، التى خلقت من أجلها ، لأن مهمتها حنانية ، حملته فى بطنها ، وحاطته بحنانها وهو فى بطنها ، فإذا أردنا أن نزن عملها فى تكوين النشء نجد أنها أشق من الرجل ، لأنها تتعامل مع نوع لا يستطيع الإبانة عن آلامه ، وتلك مهمة صعبة ، ومهمتها أطول مهمة فى نشأة الأشياء .

مهمة المرأة إن أرادت أن تكون أمينة على مهمتها التى خلقها الله لها تحتاج إلى ضعف وقتها الذى تقضيه فى هذه المهمة .

فالمرأة تتعامل مع الطفل ، والإنسان فى طفولته يعتبر المقياس الأعلى للطفولات فى الكائن الحى .

فالأشياء تختلف فى طفولتها ، شىء طفولته ساعة ، وشىء طفولته يوم ، وشىء طفولته أسبوع ، على قدر عمر الأشياء . . ومع ذلك فطفولة الإنسان السيد تتناسب مع سيادته . فالله تعالى يقول :

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم) (١) .

إذن فالحد الذى يخرجنى عن الطفولة هو أن أبلغ الحلم . أى إذا كان عندى قدرة على أن أنجب مثلى . إذن فالإنسان من الولادة إلى أن يبلغ هو طفل .

---

(١) سورة النور آية : ٥٩ .

وتلك الطفولة فى حاجة إلى حضانة ، وهذه الحضانة نجدها فى الأب والأم . الأب حاضن فى الخارج ، والأم حاضنة فى الداخل .

وإذا نظرنا إلى القيم التى تسيطر على نفس الإنسان بعد أن يكون شاباً فتياً ، وبعد أن يكون رجلا ، فكل هذه القيم تتكون عنده من أشياء تبدأ منذ تتفتح عنده وسائل الإدراك . فبمجرد أن يدرك تبدأ قضيته أن يتعلم . يقول الله تعالى :

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ (١) .

إذن بمجرد أن يوجد سمع يوجد إدراك ، وبمجرد أن يوجد بصر يوجد إدراك ، وبمجرد ما يوجد عقل يوجد إدراك . وما دام هكذا فمنذ أول وجود هذه المدركات يجب أن يتعلم .

ولكن لماذا طالت طفولة الإنسان هكذا ؟

لأن مهمته عالية ، ولهذا تتطلب طفولة واسعة لأقضيات كثيرة تتناسب مع مهمته فى الحياة . . والأم هى سيدة هذه الفترة . . ويمكن أن تأتى له بحاضنة تصنع له متطلبات حياته ، ولكننا لانستطيع أن نضع فى صدر أى حاضنة قلب أم .

إن قلب الأم وظيفة أخرى . . فإذا نظرنا إلى المحاضن التى أنشأوها فى الخارج ، وجاءوا فيها بحاضنات ، لم نجدها تأتى بنتيجة إلا ما قرأناه فى كتاب « الأطفال بلا أسر » لأن الطفل فى فترة من الفترات يريد راعياً له وحده ، وحاملا له وحده ، ومن يعتنى به وحده ، بدليل أننا إذا رأينا طفلا ولد عقيبه طفل آخر ، فما يحدث من الطفل الأول ليس غريباً علينا . فمابالك بحاضنة تشرف على عشرة أو عشرين . . هى طاقة موزعة على غير أبناء ، من قلب غير قلب الأم :

---

(١) سورة النحل آية : ٧٨ .

إذن فالمرأة إذا أدت مهمتها على ما طلب منها فإن وقتها يضيق بها .

ومن الممكن أن تكون المرأة كل شيء فى الوجود إذا أخلصت لمهمتها.. فالمرأة حين تأخذ جهد الرجل وعرقه ، وتحاول أن تدبره تدبيراً يتسع لمطلوبات الحياة تستطيع أن تنميه ، وتستطيع أن تتعلم وتعلم أبناءها ما يكف النفس عن مصروفات فى غير طائلها ،وتستطيع أن تجعل البيت مستقلا ذاتياً فى كل شىء .

فإذا كانت المرأة تريد أن تعمل فلتعمل فى مملكة بيتها ، وزيرة صحة ، ووزيرة تعليم ، ووزيرة مالية ، وقاضية بين أولادها .

والإسلام حين طلب من المرأة أن تتفرغ لهذه المهمة فيجب ألا نعزل قضايا الإسلام بعضها عن البعض .

يقولون : حاجة العصر هى التى اضطرت المرأة للخروج إلى العمل .

نقول : إنك غيرت قضية من قضايا الإسلام . المرأة مطلوبة من زوجها ، ومن أبيها ، ومن إخوتها ، فحين تأخذ قضية المرأة ، لاتعزل قضيتها فى الإسلام عن باقى القضايا الإسلامية .

إذن لو وجدت امرأة ليس لها أحد من هؤلاء ، أولها من هؤلاء أحد ، ولكنه عاجز ، فالإسلام لايجمد أبداً . لم يمنع المرأة فى هذه الحالة من أن تضرب فى الأرض الضرب المناسب لمهمتها ، وأن تحتفظ أيضاً بكونها امرأة .

وقصة بنات شعيب فى القرآن لم تترك عنصراً من عناصر احتياج المرأة إلا وجاءت به . مما يدل على أن القرآن لايعرض القصص للتسلية وقتل الوقت ، بل لالتقاط العبرة .

قضية الإسلام : أن الرجل مسئول عن بناته ، والرجل مسئول عن امرأته ، وعن أمه ، فالإسلام إذا أخذناه كلا ، فإننا لانجد فجوة واحدة ،

فإذا وجدت امرأة محتاجة ، وليس لها من يقوم بها ، فقد ضرب الله لنا المثل فى قصة موسى فقال :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ (١) .

تذودان ماذا؟ تذودان الماشية . ومعنى تذودان أى : تمنعان الماشية أن تذهب إلى عين الماء .

المرأتان تمنعان الماشية أن تذهب إلى عين الماء لترد ، فما الذى أخرجهما إلى مكان الماء إذن؟ هذا شىء يلفت النظر بحق .

إذن فقول موسى عليه السلام : ﴿ ما خطبكما ﴾ سؤال طبيعى . رأى حالة متناقضة ، رأى امرأتين مع ماشيتهما نحو عين الماء ، ثم منعاها أن ترد الماء . وردت المرأتان : ﴿ لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ .

﴿ لانسقى ﴾ إذا كان هناك جمع وحكى عنه قول ، فهذا دليل على أن القضية مدروسة . هما قالتا . إن قالتا معاً فهذا دليل على أنها ليست قضية ارتجالية ، إنما هى قضية مدروسة ، فالجواب مدروس ، وإن قالت واحدة وسكتت الأخرى فهى موافقة سكوتية . والمعنى : قد استقر فى ديننا وعرفنا أننا لانسقى حتى يصدر الرعاء .

﴿ حتى يصدر الرعاء ﴾ . كان هناك رجال يسقون. فلو أن الضرورة كانت تبيح للمرأة أن تختلط بالرجل فى العمل لكان لهما مبرر أن تختلطا بالرجال عند الماء . . فالمرأتان أخذتا الضرورة بقدرها ، خرجتا لأن أباهما شيخ كبير ، هذه قضية بحيثيتها ، لاتسقيان حتى يصدر الرعاء . يعنى أخذتا الضرورة بقدرها ، بدون تزيد .

ليس معنى أن الضرورة أخرجتهما أن تحتا بالرعاة ، فهن وإن كن خرجن ، فقد خرجن فى إطار الحجاب أيضاً .

---

(١) سورة القصص آية : ٢٣ .

إذن ﴿أبونا شيخ كبير﴾ حيثية الضرورة، و﴿لا نسقى حتى يصدر الرعاء﴾ حيثية الضرورة بقدرها بدون تزيد .

إذن فما هى مهمة المجتمع الإنسانى أو الإيمانى ؟

تظهر مهمة المجتمع الإيمانى أو الإسلامى فى قوله تعالى : ﴿فسقى لهما﴾. مهمة المجتمع : أنه إذا رأى امرأة أخرجتها الضرورة إلى مجال ، فعليه أن يؤدى لها العمل ، لتعود إلى مكانها الطبيعى.هذه هى مهمة الإيمان ، وقد جاء بها الإسلام إلينا من عهد موسى .

فالإسلام يعرض القضية لتستنبط منها الضرورة ، ومجالات الضرورة ، حتى لانأخذ الضرورة بتزيداتها ، ونضيف إليها أشياء ليست من مجال الضرورة .

فالإسلام لم يقف جامداً عند وجود الضرورة التى تلجىء المرأة إلى الخروج لتعمل خارج بيتها ، وحدد الضرورة فى هذه القصة ، فى قوله تعالى : ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ وهى قضية ناضجة فى أذهان النساء فى ذلك العصر ، وليست ارتجالية .

ثم تولى موسى إلى الظل ، فقال : ﴿رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير﴾. وهذا يدل على حاجة موسى ، ولكنه قضى العمل حسبة لوجه الله ، لأنه رأى امرأتين خرجتا ، وهذا مناف للطبيعة .

وكون القرآن يعطينا الحكم منذ عهد موسى ، لأنه العالم بعلمه المحيط ، ويعلم أن أصحاب موسى هم الذين سيصنعون للمرأة حدود الانطلاق عندهم ، ليكون ذلك أسوة لحدود الانطلاق عند غيرهم . فجاء بها عن موسى ، لأننا حين نرى ما يفد إلينا من صناعات اليهود وادعائهم تجميد المرأة على نظام الإسلام،نقول لهم : نبيكم هو الذى سقى لهما ، ومعنى ﴿سقى لهما﴾ أن هذه كانت مهمته .

وبعد ذلك نلتفت إلتفاتة أخرى إلى أن المرأة من كرامتها أن تنهى هذه المهمة . لم يجعل الله إنهاء القضية فى القصة على يد رجل ، لا على يد موسى ،

ولا على يد شعيب والد المرأتين . وإنما جاء بها عن طريق المرأتين . فكأن المرأة الكريمة على نفسها ، الحريصة على وضعها العرضى ، ووضعها الأدنى ، فى أى مجتمع ، أن تحاول جاهدة أن تخرج من الضرورة حين تجد أول بصيص من الأمل يخرجها من الضرورة .

ونلحظ ذلك فى اللقطة الموجودة فى الآية ، فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ (١) .

لو أن المرأة حلا لها أن تخرج من مكانها الطبيعى إلى الخارج ، لما نبهت أباها إلى أن يستأجر الرجل ويحميها من الضرورة التى أخرجتها .

إذن فالمرأة الواعية هى التى تعشق التستر ، وتعشق الاحتجاب ، لأن ذلك هو كرامة المرأة . ولذلك نلاحظ شوقى رحمه الله حين جاءت قضية السفور ، على يد قاسم أمين ، وحمل لواءها ، وأراد أن يخرج المرأة إلى الشاب ، وقف شوقى وقال قصيدته المشهورة . والجهلاء الذين سمعوها ظنوها تأييدا للسفور ، وكانوا يستشهدون ببعض أبياتها .

صداح ياملك الكما ن ويا أمير البلبل

هذه هى القصيدة ، فمن أراد أن يراجعها فليراجعها ، ليعلم أن كثيراً من الذين يسمون أنفسهم أدباء يستشهدون بأبيات منها يظنون أنها تأييد لقضية السفور . فنقول لهم : أنتم لم تفهموا عن الرجل شيئاً ، لأن الرجل تكلم كلاماً رمزياً ، وجعل المسألة كأنه يخاطب عصفوراً فى قفص ، والقفص الذى كان يعنيه قفص الحجاب للمرأة . والعصفور هو المرأة . قال شوقى يخاطب هذا العصفور .

ياليت شعرى يا أسيـ ـر شج فؤادك أم خلى
وحليف سهد أم تنا م الليل حتى ينجلى
حرصى عليك هوى ومن يحرز ثمينا ينجلى

(١) سورة القصص آية : ٢٦ .

يا طير لولا أن يقولوا	جرت قلت تعقل
اسمع فرب مفصل	لك لم يفدك كمجمل
صبراً لما تشقى بـــه	أو ما بدا لك فافعل
أنت ابن رأى للطبيـ	عة فيك لم يتحـــول
أبدا ولوع بالإســـا	ر مهدد بالمقتـــــل
إن طرت عن كنفى وقعـ	ـت على النسور الجهل

فهو يقول للعصفور : تعقل . ويحذره من مغادرة القفص خوفاً من النسور الطائشة . فهو بهذا يؤيد الحجاب ولا يعارضه .

إذن فالمرأة حين قالت لأبيها : (يا أبت استأجره) لم تقل هذا إلا أنه يخرجها من الضرورة التى اضطرت إليها على مضض .

وانظروا إلى لباقة شعيب عليه السلام ، كيف يستأجره وهو رجل ، يدخل البيت وفيه بنتان ؟ فلماذا لا يحل المسألة حلا إيمانياً ؟ قال له : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ (١) .

هكذا أطلق الله القصة ، لا لقتل الوقت ، ولكن للعبرة . وأطلقها منذ زمن موسى عليه السلام ، لأن الله يعلم أن البلاء سيأتينا من أتباع موسى هم الذين يزينون لنا وللمرأة أن تخرج ، وذلك حتى لانتهم شريعة موسى بذلك وليعلموا أن الحجاب قبل أن يكون فى شريعتنا ، فهو فى شريعة رسولهم الذى يؤمنون به ، وشرائع غيره من الرسل ، وبذلك تنتهى مسألة الضرورة عند المرأة .

وأيضاً أرادوا أن يحرضوا المرأة المسلمة على الإسلام ، فقالوا : إن الإسلام يريد أن يمنع المرأة حقها فى التعلم ، وحقها فى التحرر ، وفى أن تخرج ، وفى أن تختار من تشاء .

---

(١) سورة القصص آية : ٢٧ .

ونقول لهم : المسألة ليست كما يظنون ، ولكن المسألة أنهم رأوا فى الإسلام خميرة المناعة الإيمانية التى جعلت الشريعة لاتقتصر فى هذه المسألة على الفعل النزوعى ، بل سبقت إلى الفعل الإدراكى . فهم يريدون أن يهدموا هذه القضية عندنا .

فالتشريع إنما يتدخل عند الفعل النزوعى . ومعنى هذا أن الوجدان لاتشريع له ، والإدراك لاتشريع له . فمثلا ، واحد يحب إنساناً . نقول له : أحبه كما شئت ، ولكن لاتظلم الناس له . وإنسان يبغض إنساناً . نقول له : أبغضه كما شئت ، ولكن لاتظلم للناس .

فالمسائل الوجدانية لايتدخل فيها الإسلام ، ولذلك يقول الله تعالى :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾(١)

يعنى : لايمنعكم بغض قوم من أن تعدلوا . لم يمنع الشنآن ، وإنما منع أن يجرنا الشنآن إلى الظلم ، ولو وجد الشنآن بلا ظلم فلا داعى لنا به .

ولذلك قال عمر بن الخطاب لقاتل زيد بن الخطاب : ازو وجهك عنى . يعنى : أنا لاأحبك. فقال له : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا . قال : إنما يبكى على الحب النساء . فالتشريع لايمنع من أن تحب أو تكره .

ولكن هناك حباً عقلياً وبغضاً عقلياً ، كما أن هناك حباً عاطفياً وبغضاً عاطفياً . والحب العاطفى لايقنن له الإسلام ، إنما يقنن عند النزوع : تحبه ، لاتظلم أحداً له . تكرهه ، لا تظلمه .

وإنما الحب العقلى مطلوب . ولذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه توقف حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فعمر قال : أحب من نفسى لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

---

(١) سورة المائدة آية : ٨ .

فلما علم عمر أن ذلك شرط فى الإيمان علم بفطرته الذكية : أن المراد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الحب إنما هو الحب العقلى :

والفرق بين الحب العقلى والعاطفى : أن الحب العاطفى هو أن تحب بلا سبب . تحب ابنك وإن كان بليداً . هذا حب عاطفى . وتحب ابن عدوك لأنه ذكى ، فهذا حب عقلى . تحب الدواء المر بعقلك لابعاطفتك . . وكذلك حبنا للرسول صلى الله عليه وسلم حب عقلى.لأنه هو الذى أنقذنى،وأعطانى الخير كله ، فأنا أحبه بعقلى .

ووجد عند أناس أنهم يحبونه بعاطفتهم . . فالمرأة التى قتل أبوها وزوجها وأخوها فى الحرب ، وبعد ذلك يقال لها : قتل أبوك وأخوك وزوجك . فتقول : وما حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ تحبه بعقلها وعاطفتها . .

والمواجيد التى يجدها الإنسان فى نفسه لاثواب عليها ولا عقاب ، إنما الثواب والعقاب على العمل النزوعى فقط .

شىء واحد تعدى التشريع فيه مرتبة النزوع ، وذهب به إلى مرتبة الإدراك ، وتخطى مرتبة الوجدان ، وقال : لاتدرك ، حتى لاتجد ، ثم تنزع .

وبيان ذلك أن الإنسان حين يمر أمام بستان ، فيجد وردة جميلة . رؤيتها لها إدراك ، وإعجابه بها وجدان ، ومد يده لاقتطافها نزوع . والتشريع يتدخل حين أنزع . لم يمنعنى من رؤيتها ، ولا من الإعجاب بها ، إنما حين أريد أن آخذها يمنعنى ، ويقول : هى ليست لك ، استأذن صاحبها أولا .

هكذا إلا فى مسألة المرأة ، فإن التشريع يبدأ من الإدراك لئلا تجد ، ثم تنزع . . وذلك لأنك لاتستطيع أن تفصل الإدراك عن الوجدان عن النزوع ، لأن فى هذه العملية سراً ترتب على شىء مادى فى تكوينك ،

وهذا الشيء المادى إما أن تكبته ، وإما تنطق به . فإن انطقت به ولغت فى أعراض الناس ، وإن لم تنطق به حطمت نفسك ، وأتعبت حياتك ، وحملت نفسك فوق طاقتها .

فكأن الله برحمته بك قال لك : أنا سأتعدى فى مسألة المرأة فى التشريع مرتبة النزوع ، وأحرم الإدراك ، حتى لايوجد وجدان ، ولا يوجد نزوع ، وبذلك أكون قد رحمتك .

إذن فالتشريع الإسلامى حين قال للمرأة : قرى فى البيت ، لاتتبرجى ، لاتعرضى مباذلك ، فهذا تكريم لها ، ومنع للعملية النزوعية الناشئة عن الوجدان الناشىء عن الإدراك . فما لم تدرك لاتجد ، ومالم تجد لاتحدث نزوع . لكن إذا أدركت وجدت ، فإذا وجدت فلا بد أن تنزع .

فالتشريع هنا قال : أنا سأرحمك وأطلب منك أن تغض طرفك ، وأطلب من المرأة أن تحتجب ولاتتبرج ، ولا تبدى زينتها إلا لمحارمها .

فإذا قام المجتمع بذلك فقد امتنع عن الإدراك، وامتنع عن الوجدان نتيجة لعدم الإدراك ، وبالتالى فلا نزوع . وفى ذلك أيضاً تكريم للمرأة وتأمين .

ومعنى التأمين : أن تأخذ من القادر لتعطيه حينما يكون عاجزاً : : فالحجاب وغض البصر تأمين للرجل ، وتأمين للمرأة ، لأن عمر المرأة فى الجمال محدود ، والمرأة تشيخ قبل الرجل ، بسبب الحمل والولادة والرضاعة .

فهب أن رجلا متزوجاً بواحدة ، وعاش معها فترة من الزمن ، إلى أن ذبل جمالها ، حتى أصبحت غير مرغوبة ، ولا جميلة ، ولا جذابة ، لو أن زوجها لا يرى إلا هى لظلت فى عينه كما هى لا تتغير فى نظره كل يوم . أى أن التغير كان يسرق من الرجل ، لأن التغيير لا يأتى فجأة ، وإنما يأتى بتسلسل . كما تنظر إلى ابنك منذ يولد ، وتظل تنظر إليه دائماً ، فإنه لا يكبر فى نظرك أبداً. لماذا ؟

لأن الكبر ليس معناه أن جزءاً من القدر يزيد فى نهاية قدر من الزمن . بل هو قدر شائع فى الزمن . . فإذا كان الطفل سيكبر كل يوم مليمتراً ، فليس معنى ذلك أن يأتى آخر النهار ويزيد هذا المليمتر ، بل هذا القدر شائع فى كل الزمن :

ولكن إذا غبت عنه شهرين أو ثلاثة ، فقد يتجمع النمو المطرد فى كل الزمن ، فتعرف أنه كبر .

وإذا زرعت زرعاً ، وظللت ناظراً إليه منذ زرعته ، فإنك أيضاً لا ترى أنه كبر ، لأن النمو سيشيع فى جزئيات الزمن ، ولا معيار يضبطه بها ، فكذلك الزوج الذى دخل على زوجته وهى فى لباس عرسها ، جميلة فتية جذابة ، ثم ينظر إليها ، فاليوم لا يجدها تتغير عن أمس ، وغداً لن يجدها تتغير عن اليوم . فإذا لم ير غير امرأته ظن أن الدنيا هى امرأته ، ولا شىء غيرها .

فإذا خرج إلى الشارع ، ورأى فتاة سافرة ، فى ميعة صباها ، وعنفوان شبابها ، وقمة جمالها ، متبرجة متهتكة ، ماذا يكون موقفه ؟ إنه سيبتدىء فى دور المقارنة ، وإذا ابتدأ فى دور المقارنة وجد فتاة فى مقتبل العمر ، وأخرى فى إدبار من العمر ، لا شك أن مقاييسه ستختل .

ففساد البيوت كله من هذه المسألة ، ولكن الناس يخلعون عليه أسباباً أخرى ، فتتهمها بأنها غير مدبرة ، وبأنها مهملة ، وبأنها صنعت كذا ، وعملت كذا ، وفى الواقع ليست كذلك هى . بل هو رأى الفتيات الجميلات فى الخارج ، ورأى فى بيته امرأة ذابلة مشغولة تسرع نحو الشيخوخة ، فصنع ذلك .

وكذلك أبناؤها ، لم تستقر حياتهم ليتزوجوا بعد ، ولكن تنتظرهم سياط تلهب غرائزهم فى الشوارع ، فالفساد يأتى حينئذ من ناحية الأب ، ثم من ناحية الأبناء ، وبعد ذلك لا يدرك الناس لذلك أسباباً ، بل يصنعون أسباباً أخرى غير الأسباب الحقيقية .

فالتشريع حينما تدخل ، منع هذه العملية ، وقال للمرأة : أنا حين أمنعك من السفور وأنت فى ريعان جمالك ، فلكى أحميك حينما يزول عنك هذا الجمال . أمنعك حتى لا يكون عند رجلك جمال مرئى بعينه إلا أنت وجمالك . فإنه إن رأى سواك وكانت أجمل منك ، فإن الحياة تتعكر ، وصفوها ينتهى .

كذلك نقول لهم : التشريع حين طلب من المرأة أن تقر فى البيت ، وإن خرجت خرجت محتجبة غير متهتكة ولا متبرجة ، فهذا هو الحق . فإذا أحالوها على المسألة الحضارية نقول لهم : أنتم كاذبون .

والله لو اقتصرت المسألة على خروجكن للتعليم لما كانت هناك مشكلة ، ولكن قلن لنا : ما العلاقة بين تعليمكن وبين صدوركن المكشوفة ؟ أو بين التعليم وبين الزينة الفاضحة ؟ أو بينه وبين ظهور الأفخاذ والأذرع ؟ أو بينه وبين اللباس اللاصق الذى يدل على المفاتن : بل أنتن أخذتن الضرورة ، وأدخلتن فيها غير ضرورات ، وبذلك حققتن الفتنة .

إذن فقد كان أهم سلاح فى أيدى أعداء الإسلام هو المرأة حين استخدموها عنصراً فعالا فى الدخول على المسلمين فى عقائدهم ، دخلوا بها كأم ، ودخلوا بها كأخت ، وكبنت ، ليستخدموها فى الهجوم الجديد ضد المبادىء الإسلامية .

وقد حدثت حوادث فى باكستان : وحوادث فى أندونيسيا ، تقول : إن بعض الغيورين على الإسلام لبسوا مسوح الاقتناع ببعض المبادىء حتى داخلوا هؤلاء الأعداء فى مجتمعاتهم التمهيدية ، ليعرفوا مدى ما يعد للإسلام من كيد .

ويؤكد ذلك قولهم : إن الإسلام حتى فى تبشيراته للمتقين الصالحين الورعين فى الجنة أعد للرجال حوراً عيناً ، وترك النساء بلا رجال . . هكذا أرادوا أن يدخلوا على الإسلام ، مما يدل على أن المخططين ضد الإسلام

رجال لهم خبرة بكل قضايا الإسلام ، فهم يتعمقون فى دراستها لا لينشروها هدياً ، ولكن ليأخذوا سطحيات المفارقات للإضرار بالإسلام .

ولذلك أهاب بى كثير من الذين كتبوا لى أن أرد على هذه القضايا كلها .

نقول للفتاة المسلمة : إن القرآن قد حذر من ذلك فقال تعالى :

﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ (١) .

فكلمة « ولو أعجبكم » فى القرآن دليل على أنه قد يستغل الإعجاب الذى يوجد فى مقومات البنية التكوينية للرجل لإغراء المرأة، وقال تعالى فى المقابل :

﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ (٢) .

أى أن العجب المادى بالقالب مجرداً عن القيم يعطى متعة وقتيــة ، ولكنه ينجز فى المقومات الأصلية للتكوين الإنسانى .

وأيضاً دخلوا على الإسلام : من أنه جاء ضد المرأة من ناحية أنهم ادعوا أن الإسلام ظلم المرأة فى الحقوق الإرثية التى تؤول إليها ممن ترثه ، فجعلها دائماً على النصف من الرجل وكأنها يجب أن تكون على النصف من الرجل فى كل شيء . وقص الذين كتبوا لى فى هذه المسألة قصة مما يعلمون فى جيرانهم حصل فيها الشقاق ، لدرجة أن المرأة طعنت أخاها بمدية ، بسبب هذه الشائعة التى قال بها المبشرون المنصرون .

وجدير بنا أن نصنع المناعة أيضاً فى هذه المسألة ، وإن كنا تكلمنا كثيراً لأن بعض الكتب التى وصلتنا من نيجيريا بالذات تقول : نسألك بالله ألا تترك شيئاً من ذلك المسطور فى هذه الكتب دون أن ترد عليه ، وإن كنت تناولت فى أحاديثك ، فنحن نريد أن نكتب فى كل قضية .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢١ .

فنقول لهؤلاء : يجب أن تعلموا أن الإسلام لم يجيء فى هذه المسألة ضد المرأة ، بل إنه كان محابياً للمرأة ، لأن أى قضية من قضايا الإسلام لا يصح أن تؤخذ فى غياب القضايا الأخرى ، بل لا بد أن تؤخذ فى حضور القضايا الأخرى ، ليكون الحكم على القضايا مجتمعة ، لا على قضية منفردة .

فالإسلام حين يعطى المرأة نصف ما يعطى الرجل ، فذلك لأنه جعل المرأة هى المقياس ، فلم يقل : أعطوا المرأة نصف الرجل ، بل قال : أعطوا الرجل ضعف المرأة ، فجعل المرأة هى المقياس الذى يدور عليه الأمر ، أى المكيال الذى يكال به الأمر .

لقد جعل الإسلام الضعيف هو القاعدة ، ثم جاء إلى القوى فحمل قضية الأقوى على قضية الأضعف فقال : ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾(١). فكأن حظ الأنثى هو المعتبر فى المقياس .

فالنظرة الاقتصادية إنما جاءت من هذه الناحية ، لأن النظرة الاقتصادية تقول : إنه ليس فى كل الأحيان تأخذ المرأة نصف الرجل ، بل هى حالة واحدة منصوصة هى حالة الإخوة إذا كانوا رجالا ونساء . وفى كثير من الأحيان تأخذ البنت مثل الولد ، كالأم والأب ، وكالأخوات من الأم يأخذ الذكر مثل الأنثى تماماً .

وذلك لأن الإسلام لاحظ المحيط الاقتصادى ، الذى يقول : إننا نريد أن نعطى دخلا من ميت لنزيد به دخل حى ، والدخل يفترض فيه أنه يقوم بوجهات نظر الحياة..ووجهات نظر الحياة تختلف ما بين المرأة وبين الرجل .

وذلك لأن المرأة — إن أحضرت كل القضايا التى تتعلق بها فى الإسلام — فهى غير مسئولة عن نفقة نفسها ، فهى إن كانت بنتاً فهى مسئولة من

---

(١) سورة النساء : ١١ .

أبيها ، وإن كانت متزوجة فهى مسئولة من زوجها ، وإن كانت أختاً فهى مسئولة من إخوتها ، فلا يلزمها الإسلام أن تنفق شيئاً من مالها وإن كانت غنية وزوجها فقير ، بل على الفقير المتزوج من غنية أن يقترض من غيره لينفق عليها :

إذن فالمرأة لا التزام عليها فى تشريع الإسلام ، لأنها محمية فى كنف الزوج أو الأبناء أو الأعمام ، أو غيرهم ، فكل أمورها ليست هى المسئولة عنها .

فإذا جاء الشارع وأعطاها نصف أخيها ، فلأن النصف سيكفيها بلا زوج، وإن تزوجت فسيكون هذا النصف خالصاً لها،لأنها ستلحق بمن ينفق عليها ، ولا يطالبها الشرع حتى بأن تقرضه من مالها لينفق عليها .
ولكن الأخ الذى أخذ ضعفها ، مطلوب منه أن يبنى حياته بزوجة يأتى بها لينفق عليها ، فما دام هو سيأتى بزوجة ينفق عليها ، وهى ستذهب إلى زوج ينفق عليها ، فكان يجب أن يقال : لماذا حابى الإسلام المرأة ؟ هذا هو الكلام المنطقى الذى يتسق مع الواقع .

نقول : نعم هو حاباها، ولكن لماذا حاباها ؟ لأن الإسلام راعى أن المرأة قد يكون من سلاحها فى الحياة أنوثتها . فهو أراد أن يحصنها من أن تستعمل أنوثتها لحياتها ، حتى إذا ما ظلت بلا عائل كفاها حقها ، فإذا ما كان لها عائل ، كان هذا الحق وفراً لها .

أما الرجل فسلاحه فى الحياة رجولته وكدحه فى الحياة والأمر فى المرأة مبنى على الستر .

فيجب على المسلمين فى بقاع الأرض إذا وفدت إليهم وافدة من هذه الوافدات الإلحادية أن تكون لهم المناعة الكافية لأن يعرفوا كل قضية من القضايا الإسلامية بحججها التى تنهار أمامها كل الحجج البطلانية التى يأتى بها هؤلاء الأعداء .

ثم قالوا للمرأة يبردوها على الإسلام : انه جعل انفصالها عن زوجها بكلمة عابرة تقال .

نقول لهم : كيف دخلتم على كلمة الفراق ، ونسيتم كلمة التلاقى ؟ إن التلاقى أيضاً يكون بكلمة . . وإذا كان التلاقى بكلمة زوجنى وزوجتك ، فلماذا تستبعدون أن يكون الطلاق أيضاً بكلمة طلقتك . فهو يدخل إلى الحلال بكلمة ، ويدخل إلى الحرمة بكلمة .

وأيضاً ، فالمرأة التى تعرف أنها ستكون مع زوجها رهن كلمة منه ، لينهى هذه العلاقة ، لا بد أن تعرف أن الشريعة تحتاط جداً فى أن تضع هذه الكلمة فى يد أمين عليها ، وليس الأمين عليها سوى رجل يخاف ربه ، ويخشاه ويرعاه فى كل أموره ، كما قال الحسن لمن استشاره فى زوج ابنته : قل له اجعلها عندك ، فإن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

لو أن المرأة عرفت ذلك أيضاً ووعته ، وأدركت أن فراقها منوط بكلمة ، لاحتاطت هى أيضاً كما احتاط لها الشرع فى أن تضع هذه الكلمة فى يد أمين عليها فاختارت زوجها حسب مقاييس الإسلام .

وإذا تأملنا عظمة الإسلام نراه يجعل المقياس بالنسبة للرجل هو نفس المقياس بالنسبة للمرأة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول لولى الفتاة : « إن جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » : ويقول للرجل : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

فلو أن المرأة أخذت فى اختيارها لزوجها منطق الدين وقانونه ، والرجل أخذ فى اختياره لزوجته منطق الدين وقانونه فإذا التقيا أمسكا بمعروف أو سرحا بمعروف :

ويجب أن يعلموا أن الطلاق لا يتم بكلمة واحدة كالزواج ، ولكن التشريع يعطى فرصة وفرصة أخرى بعدها ، وإذا عز اللقاء وعزت الحياة والعشرة كان أمراً لابد منه أن يصدم الرجل وتصدم المرأة . وذلك بأن

الرجل إذا أراد أن يعود إلى امرأته لأنه اشتهاها واشتهته ، وأحب أن يراجعها ، فلا رجعة إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره ، تأديباً لرجولته ، وإثارة للغيرة فيه ، حتى لا يقف هذا الموقف مرة أخرى ، وتأديباً للمرأة حتى لا تكون سبباً فى الخلاف المؤدى إلى الطلاق .

فالطلاق ليس بكلمة كما يقولون ، ولكنه بكلمات وبكلمات متفرقات بمرة ، فلم يقل القرآن : الطلاق كلمتان . بل قال : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾ (١) والمرة هى الحدث فى زمن . وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ **فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ (٢). وذلك بعد المرتين من الطلاق .

وإنما كان الطلاق مرتين على عكس الزواج ، لأن الزواج إنما دخل عليه بدون تبعات تسبقه ، ولكن الطلاق قد يكون بعد تبعات تسبقه ، وهو وجود علائق ليس من السهل على القلب البشرى أن يتخطاها ، وأن يتعداها ، كوجود مودة ، أو أبناء ، وقد يرتبطان على أسباب نكد الحياة من أجل استبقاء البنوة .

لا نقول : إن الإسلام جاء لينقض قضية اللقاء ، وإنما جاء ليصفى قضية اللقاء .

أفمن العدل أن يحمى القرآن حياة كلها نكد فى ظل قانون جامد لا يبيح له أن يطلق ؟

وإذا كان القوم الذين عابوا على الإسلام هذا الموقف قد ألجأتهم ظروف الحياة وأحداثها إلى أن يعودوا إلى قضية الإسلام فى الطلاق ، فذلك لا لأنهم عادوا إلى الإسلام ، ولكن لأن أحداث الحياة عضتهم ، فلم يجدوا الملجأ إلا أن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا على أنها إسلام ، ولكن على أنها قضية تحل لهم الوضع الذى يئنون منه .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

وقد كانت عصبيتهم تجعلهم يحبسون أسباب الطلاق فى نفوسهم ، فنفست هذه الأسباب فى أمور كثيرة أهمها ولوغ الرجال فى أعراض النساء الأخريات ، لأنه يكره المرأة التى معه ، ودينه يمنعه من فراقها ، وغريزته تلزمه أن يعاشر المرأة ، وذلك نوع من الإلزام خارج عن نطاق الطبع ، وعن نطاق الإلف ، وعن نطاق العادة .

وإذا كانت محاكم المسلمين : كما يقولون قد اختنقت بقضايا الطلاق ، فنقول لهم : ليس ذلك حجة ضد قضية الطلاق فى الإسلام ، ولكنها قد تكون حجة ضد تطبيق قضايا الإسلام فى مسألة اللقاء .

إن الذين دخلوا على الزواج بغير معايير الإسلام ، وقوانين القرآن ، من الضرورى أن يحدث بينهم هذا الشقاق . ولكنى أتحدى أن يكون رجل دخل على الزواج بقانون القرآن ، وامرأة دخلت على الزواج بقانون القرآن ، ثم يأتى بعد ذلك شىء يعكر صفو الحياة .

فإذا نكحت المرأة لجمالها ، فإن هذا الجمال سيذبل ، وإذا نكحت لمالها فقد تضن بهذا المال ، وإذا نكحت لحسبها ونسبها ، فقد يكون هذا الحسب والنسب نكبة على الزوج ، ومن ثم يحدث الشقاق .

أما إذا نكحت لدينها فإن أسباب الشقاق ممتنعة ، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة .

إذن فالدخول قد تكون فيه مخالفة ، ولولا المخالفة لما جاء أمر الخروج على البال ، لأن الذى يدخل على الزواج بمنهج الله أصلا ، يوجب على نفسه أن يخرج إن أراد الخروج بمنهج الله كذلك .

﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ (١) .

والناس يفهمون قضية الحكم على أنه دخل مصلحاً فقط ، . . . لا

---

(١) سورة النساء آية : ٣٥ .

إنما دخل الحكم من جانب الزوج والحكم من جانب الزوجة ولهما أن يبرما أمراً له قوة الحكم : : وحين يكون الأمر كذلك تنتهى النزاعات سترا للأعراض فى بعض الأحايين ، وسترا لشراسة الأخلاق فى بعضها الآخر:

وفى الستر ما يغنى الناس عن نشر الأسباب ، لأن الله ملك الأمر فى الطلاق للرجل مخافة أن نقول له : اعرض أسباب طلاقك فيعرض أسباب طلاقه ، فتكون هذه الأسباب حائلا بين أن تجد المرأة من يتزوجها ، أو بين أن يجد الرجل من تقبله زوجاً . فحين جعلها للرجل فقد استتر وراءه كثير من الأسباب التى يحمى سترها أعراض الأسر .

هكذا يجب أن تكون الحميرة الإيمانية فى الرد على كثير من هذه القضايا:

تعـــدد الزوجات

وقيل للمرأة المسلمة : إن الإسلام لا يجعل للمرأة حق الزواج بالرجل ، بينما يجعل الرجل منفردا بالزواج من المرأة ، أو المرأتين ، أو الثلاث ، أو الأربع .

نقول : إن هذه القضية عولجت اجتماعياً ، وعولجت اقتصادياً ، وعولجت صحياً ، فلم يجدوا حلا لها إلا ما قضى به الإسلام .

الحل المنطقى أن نقول للمرأة التى تعترض على هذا الحكم ، هل أنت متزوجة أم غير متزوجة ؟ الجواب أن خمساً وتسعين فى المائة من المعترضات متزوجات ، فنقول لها : لا رأى لك ، لأنك متهمة فى إبداء هذا الرأى ، لأنك لا تحبين الشريكة لك ، ولكن آخذ رأى من لم تتزوج ، وتكون على الحياد .

نقول لها : ألا تكونين زوجة ثانية بدلا من ألا تكونى زوجة ؟ وسيكون الجواب حتما : أكون زوجة ثانية بدلا من ألا أكون زوجة ، والثالثة كذلك ، والرابعة كذلك .

ولو استقصينا آراء النساء اللاتى لم يتزوجن لما وجدنا واحدة منهن تقول على غير حكم الإسلام .

إذن فالرجل ليس ضد المرأة ، والدين ليس ضد المرأة ، وإنما المرأة هى التى ضد المرأة :

وأيضاً ففكرة التعدد منطقية وواقعية وفلسفية : فالفكرة تقول : لا يمكن أن يتعدد شىء على شىء إلا إذا كان المتعدد فائضاً ، فإذا كان المتعدد فائضاً فطبيعى أن يتعدد. وهب أن جماعة دخلوا حجرة فيها عشرة كراسى ، وهم عشرة ، فكل واحد يجلس على كرسى : فإذا دخل العشرة فوجدوا اثنى عشر كرسياً ، فإن واحداً يمكن أن يجلس على كرسى ،

ويتكيء على كرسى آخر . ولا يمكن أن يعدد لنفسه كرسيين إلا إذا كان هناك فائض .

إذن فالتعدد لا يأتى إلا عن فائض ، وهذه القضية خدمتها الإحصاءات الحديثة . ولو استطاع واحد منا أن يقوم بإحصاء فى منطقته ، لوجد نتيجة الإحصاء منطقية . فإذا نظرنا إلى عالم التكاثر فى الكون ، وعالم التكاثر نعرفه فى الإنسان ، ونعرفه فى الحيوان ، ونعرفه فى النبات ،

وهذا التكاثر ينشأ من لقاء بين الموجب والسالب ، أو بين الذكر والأنثى . فإذا ما نظرنا بالاستقراء إلى عدد الذكور وعدد الإناث ، وجدنا دائماً أن الإناث هن الكثيرات ، والذكورة محصورة فى عدد ليس بالكثير .

ولننظر إلى مزرعة نخيل ، ونحصى عدد الإناث والذكور ، نجد أن الذكور مرة تكون واحداً ومرة تكون اثنين . لم تكن ثلاثة إلى عشرة فى المائة . وذلك لأن الذكر يخصب أكثر من أنثى ، والأنثى لا تخصب من ذكرين .

وكذلك إذا ما جئنا بمائة بيضة ، وفرخناها ، ثم أحصينا ما بها من ديوك وما بها من إناث وجدنا أن عدد الإناث أكثر . وكذلك الإنسان إناثه أكثر من ذكوره . هذا إذا صرفنا النظر عما يطرأ على الذكورة من صدمات وأحداث وحروب .

إذن فعنصر الذكر أكثر من عنصر الأنثى فى كل عالم من عوالم التكاثر . فإذا كان الأمر كذلك ، ولا تعدد إلا عن فائض فسنقول لمن يقف ضد الإسلام ، ويعيب الإسلام : أعط كل ذكر أنثى ، ثم ستجد الفائض عدداً ، هذا العدد ما موقفه فى المجتمع ؟

موقف الأنثى حينئذ إما أن تقف فتكبت ، أى تستطيع أن تكتم السبب الأصيل ليحصل تنفيس بأسباب فرعية أخرى ، والسبب الأصيل لا يوجد ، وهذا التنفيس ستكون نتيجته إثارة الاضطراب والقلاقل فى بيئاتها ، فإذا كانت فتاة لم تتزوج فنحن نعرف كثيراً من المآسى من

هذه المسألة ، وتأخذ فى جانبها الأم ، تعكر صفو الحياة كلها لأنها لم تتزوج ، وهذا السبب مستور ، والحياء يمنع من اظهاره ، ولكنه يأخذ أسباباً أخرى حتى نواجهها بالحلول وبالعلاجات ، ومع ذلك لا تشفى ، لأننـا نعالج فى غير الداء .

إذن فالتعدد يمنع كارثة ، ما دام لا فائض إلا بتعدد ، فلا بد أن تحل قضية ذلك المتعدد ، فشرع الإسلام أن يتزوج اثنتين أو ثلاثا أو أربعا .

أما إذا لم تعف الفائضة فمع من يكون ميدانها ؟ يكون ميدانها مع متزوج ، أو مع فتى لم يبلغ حتى مرحلة احتمال تبعات الحياة . وبذلك يفسد المجتمع كله .

فالحل الإسلامى حل طبيعى فى حل ظاهرة الفائض ، ولا أقول ان الفائض مشكلة ، لأن الفائض لم يطرأ على من شرع ، لأن المشرع الأعلى يعلم أنه سيوجد فائض فيمن خلق ، ولكنه فائض لحكمة ، وهذه الحكمة لجأ إليها كثير من الدول الآن حين لاحظوا نقصاً فى عدد الرجال نتيجة للحروب فأحبوا أن يعددوا حتى يخصب الرجل الواحد عدداً من الإناث ، .

والحكمة فى هذا ليس تشريع التعدد ، ولكنها فى آثار التعدد فى الأسر ، فأخذوا من واقع الآثار ما ينفر من أصل الحكم ، وذلك تبعاته دائما تعود إلى المسلمين ، لأن المسلم الذى عدد نقول له : إنك عددت بحكم الله ، فهل التزمت حكم الله فى كل الأمر ؟

أخذت التعدد بحكم الله ، فلماذا لا تأخذ العدالة بين المتعددات بحكم الله ؟ لماذا أخذت من يمتعك ويريحك بحكم الله ، وقلت : هذا هو التعدد . وحين عددت لم تعدل ولم تقل : الله شرع العـــدل .

لقد أرحت أيها المعدد نفسك ، وأرحت شهواتك ، إن لم تحترم الدوافع الأخرى الإنسانية فى زواجك ، فقد أخذت لنفسك المنفعة ، وأبقيت أثر متعتك ، استدراكا ونقداً ، لأنك ضيعت حكم العدالة بين المتعددات .

ولكن لو أنك أخذت الحكمين معاً ، واحترمت العدل بين زوجاتك ، لم تجد النساء اللائى يثرن على هذا التعدد مثاراً للسخط ، لأن المرأة منهن ستجد حظها لم يؤثر فيه حظ الأخرى، وعيشها لم يؤثر فيه عيش الأخرى، وحفاوتك بتبعات الزواج من الأولى وهى الأولاد لم تؤثر فى حفاوتك بتبعات الزواج من الثانية ، لأنك عدلت بين كل الذرية .

لكن حين نأخذ حكم الله فى التعدد ، ولا نأخذه فى العدل ، تنشأ تلك الآثار المنفرة ، والبغيضة ، والتى يستغلها خصوم الإسلام . فانظر أيها المسلم كيف أعنت خصوم الإسلام على الإسلام ، أعنتهم على أن يدخلوا على نقد الإسلام ، وتشوه قانون التطبيق نفسه ، لا لتشوه الأمر المتعلق بالمطبق (بكسر الباء) .

والعدالة تقتضى ألا تنظروا ياأعداء الإسلام إلى القانون من خلال المطبقين ، لأن الناس قد يكونون طائعين ، وقد يكونون عصاة ، فإذا كانوا عاصين فلا تأخذ من عصيانهم حجة تبرر بها السخط على ما قنن الله من قوانين .

وعلى المسلم أن يعتبر نفسه فى كل قضية من قضايا دينه داعية لدين الله ، أو هادياً بالدين إلى الله ، فإن هو طبق ما أخذه عن منهج الله بحق ، كان أسوة لغيره ، فلا يجرؤ أحد أن يدخل على الدين من ناحية المتدينين ، ولا يدخل على الإسلام من ناحية المسلمين .

وأيضاً فإن الذى يختار بين أمرين فلابد أن تكون عنده الحجة فى ترجيح أحد الأمرين على الآخر ، فالمرأة التى لم تتزوج ، ثم يأتى لها رجل متزوج ليخطبها ، لو أنها رأت أن تكون زوجة واحدة ، ووجدت لذلك مجالا ، لما بقيت للرجل المتزوج متى يأتى ليخطبها ، فهى قارنت بين أن تكون زوجة ثانية ولا زوجة ، واختارت أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة. فالذى جعلها ترجح هو سبب عندها هى ، لا عند من ينتقد الإسلام .

فلا تنتقد أنت لمختار أمراً هو خير الأمور له . . . فامرأة اختارت الخيار لنفسها ، فما حدود المجتمع فى أن يتدخل ؟

الذى يتدخل ليمنع ، يجب أن تقول له المرأة : هات لى زوجاً لأكون الأولى فى حياته . والثالثة تقول : هات لى زوجاً لأكون الثانية فى حياته : والرابعة تقول : هات لى زوجاً لأكون الثالثة فى حياته . . . إذن يؤخذ المعترض بالحجة التى تلزمه ، فلا يدخل فى أمر لا يفيده .

ثم التعدد هل هو أمر مفروض فرضه الله ، أم أمر مباح ؟ الذى يعجبه ألا يعدد لا يعدد .

لم يلزمنى الله بالزواج ، فإذا قدرت على أن أحمى أعراض الناس من نفسى ولا أتزوج ، لا أتزوج ، فالتعدد على هذا ليس إلزاماً . ليس من لم يعدد آثماً ، فمن رآه قبيحا فلا يفعله . قال الله تعالى :

(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) (١) .

إذن فالله أباح التعدد لمن لم يخف أن يظلم ،فإن خاف أن يظلم فلا يعدد . إذن فيجب أن يؤخذ الحكم بكل ظروفه ، وبكل ملابساته ،

هذا من ناحية المرأة . . ومن ناحية الرجل، فمعنى أن الرجل يعدد ، أن امرأة أولى فى حياته لم تكف طموحاته ، من أى نوع كانت : عقلية ، أو اجتماعية ، أو جنسية . وأهمها : الطموحات الجنسية ، لأننا لم نر واحداً تزوج بأخرى لأنها مثقفة أكثر من الأولى . فأغلب الطموحات هى الطموحات الجنسية .

وما دامت الأولى لا تكفيه فقد تكون له شراسة فيمن تكفيه . وهذه الشراسة فيمن تكفيه لا توجد إلا فى عرض للغير . أفنسمح له أن يريح نفسه فى أعراض الغير ، ولا نسمح له بأن يأتى بزوجة ثانية على مرأى ومسمع من الجميع ؟

امرأة محسوبة عليه ، وذريتها محسوبة عليه ، هى منه ، وهو منها ، تماماً كالأولى ، وكل إنسان محسوب عليه شىء فهو مسئول أمام المجتمع

---

(١) سورة النساء آية : ٣ .

عن ذلك الشيء فاذا لم نبح له فى طموحاته الجنسية أن يتزوج حليلة ، فقد أبحنا له أن يتخذ خليلة ، إذن فالحلائل خير ، أم الخلائل خير ؟ .

هذا ما يتعب بال الغربيين الآن . . لا يحصرون الخليلات ، ويوحدون الحليلة ، والخليلات غير محصورات هناك ، والنساء يعلمن ذلك جميعاً ، ولذلك فالمرأة الألمانية قالت : لأن أكون شريكة لرجل مع عشر نساء خير له من أن أكون له والخليلات فوق المائة .

يجب أن نأخذ زوايا التعدد هكذا من ناحية الرجل ، ومن ناحية المرأة المتعددة ، ومن ناحية المتعدد عليه .

أيطلقك حتى لا يعدد ، أم تظلين معه ؟ كل امرأة عاقلة تقول : بل أظل معه ، وأكون شريكة لغيرى .

إذن فانظروا إلى التشريع من كل ناحية ، تجدوه تشريعاً حكيماً من جميع زواياه . فالمهم أن نأخذ الحكمة من كل زواياها ، حتى لا نأخذ شيئاً من الله ، ونرد منه أشياء ، فردنا شيئاً واحداً مما شرع بجوار أخذنا شيئاً مما شرع ، فالثانية تشوه الأولى وتكون حجة علينا عند خصومنا .

حين تكلمنا فى هذه المسألة اتسعنا فيها ، وإن لم أكن سئلت عنها فى كتاب نيجيريا ، ولكنا توسعنا فيها توسعاً آخر صحياً .

هذا التوسع الصحى جاء من ناحية ما قيل : لماذا جامل الإسلام الرجل ، فعدد له المرأة ، ولم يسو المرأة به فيعدد لها الرجـــل .

قد سئلت هذا السؤال فقلت : هل فى بلادكم أماكن ليريح الشباب فيها نفسه جنسياً ؟ فكان الجواب بالإيجاب .

قلت : فماذا احتطتم لصحة المترددين ؟ قالوا : إننا نكشف صحياً على هؤلاء الفتيات فى كل أسبوع مرتين ، وهناك مفاجآت لا نظام لها ولا رتابة ، حتى نتأكد من الأمن الصحى للمتردد على النساء .

فقلت : أفعلتم ذلك مع المتزوجات ؟ قالوا : لم يحدث صحياً مثل هذه الأمراض إلا فى تلك البيئات .

فقلت : أبحثتم عن الحكمة ؟ . . قالوا : لا :

فقلت : لا شك أنكم لم تبحثوا إلا أنكم لم تجدوا تبعات تضطركم إلى البحث ، ولو وجدتم تبعات فى مسألة الزواج لاضطررتم إلى فرض الحماية الصحية للزوجات كما اضطررتم إلى ذلك فى النساء البغايا .

والسبب فى أن المرض الخبيث لا ينشأ إلا من تعدد ماء الرجال فى المحل الواحد ، أما أن يكون فى المحل ماء واحد فلا يمكن أن يكون مرض خبيث .

فعجبوا من أن الإسلام قد وصل إلى هذه النتيجة . فقلت : إننا لم نصل إليها تحت ضغط الأحداث التى تفاجئ المجتمع ، ولكننا انتهينا إليها لأن الذى آمنا به بدأ التشريع بها ، ولم يتركنا إلى أن يوجد العلاج بعد أن نشعر بالداء .

وهذه آفتكم أنتم . . آفتكم أنكم لا تذهبون إلى الدواء إلا بعد أن تشقوا بالداء . ولكن القرآن عصمنا من أن نشقى بالداء ، فشرع لنا ذلك ابتداء . وربما كنا لا نعرف العلة ، وأخذنا هنا حكماً مسلماً ، لكننا بعد أن بحثنا الأشياء بحثاً دقيقاً انتهينا إلى الحكمة فيها .

وهكذا دائماً نؤمن بأن كل قضية حكم الإسلام فيها قد يقف العقل فى حكمته ، فإن القرآن سينير له الطريق ليريه الحكمة فى كثير مما غابت عنه حكمته ، ليزداد إيماناً بما ظلت حكمته غائبة عنه .

ثالثـة الأثـافى

ثم ننتقل إلى قضية معنونة فى الكتاب الذى وصلنا بعنوان « ثالثة الأثافى » . جمع أثفية . والأثفية الأولى جاءت فى الإلحاد ، والثانية فى المرأة وقضاياها المتعددة ، وهذه هى الثالثة ، هى الداهية الدهيـاء .

وكلمة « ثالثة الأثافى « شائعة على ألسنة الناس » ، يعبرون بها عن الشىء الفظيع الذى لا يحتمل ، فكأن ما قبله محتمل ، وما بعده محتمل ، أما هو فغير محتمل .

والأثفية هى : الحجر الذى يوضع تحت القدر ليسندها . . والقدر حين توضع تحتاج إلى ثلاثة « أثافى » أى أحجار : حجر على اليمين ، وحجر على اليسار ، وحجر فى الخلف ، ولا يضعون حجراً من الأمام ، لأنهم يضعون الوقود من الأمام .

فكان الناس قديماً حين يضعون القدور يكتفون باثنتين فقط : أثفية على اليمين ، وأثفية على اليسار ، ثم يكفى الجبل عن الأثفية الثالثة ، لأنهم كانوا يسندون القدر من الخلف على الجبل . فالجبل هو ثالثة الأثافى ، فهو بالنسبة إلى الحجرين داهية عظمى .

ما هى ثالثة الأثافى فى كلام أعداء الإسلام ؟

ثالثة الأثافى فى أنهم قالوا : يجب أن تستغلوا ظاهرة فى واقع المسلمين ، هذه الظاهرة تنقض الدين من أساسه ، لأن الإسلام لم يعد مجمعاً ، بل آل إلى أن يكون مفرقاً . فاستغلوا هذه الظاهرة فى هدم الإسلام .

الإسلام أول ما جاء ليجمع . أما الإسلام الآن فى بلاد المسلمين فقد وجد ليفرق ، وآثار الفرقة ظاهرة فى كل بلاد الإسلام . . . فالمذاهب الرعناء ، والطوائف الحمقى ، والفرق المتباينة ، وكل طائفة اتخذت

لوناً تعصبت له ، ولم تر الإسلام إلا فيه ، بل إنه ربما تسامى بها الأمر ، أو تسفل بها الأمر ، إلى درجة أن تكفر المذاهب الأخرى . وتلك قضية جعلت الإسلام الآن وسيلة تفريق ، لا وسيلة تجميع .

انظروا كيف فطنوا إلى واقع المسلمين كما قلنا ، وأنهم أعدوا لذلك الأمر بالأساطين من أساتذة التبشير ، وفطاحل رجال الكهنوت ، والمتمرسين بأمر الدعوة والتبشير ، وعلماء الجامعات فى علوم الأنساب والسلالات والاجتماع ، والمتمرسين بشئون العالم النامى كله ، الدارسين له ، الواقفين على حقيقة تكوينه .

ولا شك أنهم رأوا الإسلام طوائف وفرقاً ومذاهب ، وكل مذهب يرى نفسه وأهله هم الأحق بأن ينسب إليهم الإسلام ، ويكفرون الطوائف الأخرى . فعلى هذا يصبح الإسلام مبدأ تفريق للناس ، وليس مبدأ تجميع .

فاستغلوا هذه المسألة وقالوا : أى إسلام هؤلاء صحيح ؟ فإن كان الإسلام صحيحاً فى مذهب ، فالمذاهب الأخرى باطلة ، وإن كان صحيحاً فى طائفة ، فالطوائف الأخرى باطلة .

إذن فيجب أن تدخلوا من باب ضيق الإسلام بالمذهبية والطائفية ، إلى أن الإسلام ليس هو الإسلام ، وأنه إن وافقه واحد فقد خالفه كثيرون غيره .

انظروا كيف درسوا قضايا الإسلام ، وكيف مهد المسلمون لهم بجعل دينهم فرقاً ، ليدخل الأعداء من هذا الباب ؟ وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ﴾ (١) .

هذه الظاهرة كيف نشأت ؟ إنما نشأت لخطأ المسلمين فى فهم كثير من قضايا الدين الأساسية . وقضايا الدين الأساسية جاءت من عند الله ، والله حق ، والله حكيم ، لا يمكن أن يغفل عن شىء فيه مصلحة للخلق ، ولا يمكن

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٥٩ .

أن يجعل لمبدأ يفرق المؤمنين سبيلا إلى أن يتسلل إلى منهجه ، لأنه سبحانه وتعالى صبور ، وحكـــيم .

وكثير من المذاهب الوضعية لها ظاهر يروق ، وواقع يجذب ، مهما كان أمر هذه المذاهب . فمثلا الشيوعية لها لون يعجب ، وبالتطبيق يأتى اللون الذى يتعب ولا يعجب . . والرأسمالية لها لون معجب ، وتطبيق متعب . إذن كل ناحية من نواحى التفكير البشرى لا يمكن أن تدخل على العالم لتغزوه بقبح إجماعى ، ولكن لابد أن تدخل عليه بلون جمالى مزخرف ، وإن سترت فى طيها أشياء .

إذن فكل شىء يتجه إليه الفكر لابد أن يكون له ناحية جمال تغرى ويستطيع الإنسان أن يقدمها بين يدى مطلوبه ، فمثلا فى النظام السياسى يوجد شىء اسمه « الدكتاتورية » ويوجد مقابل لها على النقيض اسمه « الديموقراطية » . واعذرونى فى استعمال هذه الألفاظ الغريبة على اللغة وعلى الإسلام ، لأننا أخذنا كل حضارتنا مستوردة من الخارج .

النظام الدكتاتورى حين يجئ ، لابد أن تكون فيه فكرة تروق الناس ، ثم تجئ فى طيه الأشياء التى تكون فى صالح الدكتاتور . فيقولون : إن كل أمر أردنا أن نصلح به المجتمع إن تركناه حتى نأخذ رأى جمهور الناس فيه لما اتفقنا على شىء ، ولتعطلت حركة الإصلاح ولكنا معوقون ، إلى أن نصل إلى أمر اتفاق ، لأن الناس أهواؤهم مختلفة ، ولذلك جاءت القضية المشهورة « لا يصلح الشرق إلا مستبد عادل » . ومعنى مستبد عادل : أى لا يستطيع أحد أن يقول له : لم صنعت كذا ، بشرط أن يكون عادلا ، لا يفرض إلا ما هو حق . وهذا لكى يخرج من غوغائية النقاش ، وجماهيرية الاستفتاء .

إذن فالدكتاتورية لها لون قد يفيد فى أن كثيراً من الأمور قد يراد البت فيها بسرعة وحزم ، دون أن تتدخل فيها الغوغائية ، طالما أن الذى يتولى ذلك سيحتاط لكل الأمر ، ولا يأتى إلا بقضايا عدل ، وقضايا حق . أما زاوية الشر فتأتى من الناحية الثانية .

والديمقراطية فيها ملمح جمالى . هو أن كل شىء لابد أن يتم برأى الجمهور . ولكن الجانب المقابل يقول لنا : إننا نؤجل كثيرا من الأعمال حتى ينتهى الجمهور إلى رأى . ويرد الديموقراطيون قائلين : ولكنها تكون نابعة من الكل ، لا من واحد يفرض هذا الملمح الجمالى . فهذه فيها حسن ، وتلك فيها حسن ، وبالتالى فى هذه مساوئ ، وفى تلك مساوئ ، بدليل أنه يوجد فى العصر الواحد القريب الإمكانيات ، والقريب الأجواء مبدآن متناقضان ، وكان المفروض ما دام العصر عصر ارتقاء يجب أن نرتقى فى المسائل .

ولو نظرت إلى دين الله لوجدته قد أخذ ملامح الجمال فى الدكتاتورية ، وترك ملامح القبح فيها . وأخذ ملامح الجمال فى الديمقراطية ، وترك ملامح القبح فيها . فأعطانا الأمرين بتسوية وبعدالة ، وأخذ من كل اتجاه خيره .

فالأمور التى يجب أن يبت فيها بحزم ، ولا تترك لأهواء البشر فيها مجال ، شرع الحق فيها تشريعاً لا يجعل لأحد مستدركاً عليها أبداً ، وتلك هى سمة الدكتاتورية . . . وهناك أمور يمكن أن تؤدى جوانب الخير على أى وجه تجىء ، وهذه لا تتطلب السرعة ولا الحزم .

إذن فالحركة الحياتية محكومة بأمرين : أمر ضرورى أن يوجد سريعاً ومبتوتاً فيه بحزم ، وأمور تأتى هينة ، ومن الممكن أن تخضع لاختيار الناس ، لتحقق لهم مبدأ الذاتية فى الاختيار ، حتى لا تكبت فيهم أدوات الاختيار ، وحتى يشعر الإنسان أن له رأياً فيما يقنن له .

والدكتاتورية تستغل هذا الأمر فتقول : لو أخذنا آراء الناس فى كل قضية لتأجلت كثير من القضايا ، ودخل العجاج ، ودخل التناظر ، ودخل الاستعلاء ، ودخلت الجماهيرية ، فلابد من أشياء نبت فيها . ذلك ناحية الجمال فيها ، وبعد ذلك تستتر فى داخلها ناحية من نواحى الشر ، وتندس فيها نواحى أخرى من النواحى التى لم تكن حيثية وجود الدكتاتورية .

والديمقراطية كذلك تدخل علينا من ناحية الجمال فيها .

ومن العجيب أننا نجد المبدعين موجودين فى زمان تكان تكون الفرص فيه متكافئة ، والإمكانيات واحدة ، والروح السائدة واحدة ، والارتقاءات واحدة . . إذن فى كل المذاهب ناحية من نواحى الجمال ، ولكنها لا تكتفى بما فيها من ملامح الجمال ، بل تدس فى أثنائها كثيراً من ملامح القبح .

والإسلام يمثل النظرتين . فى الأمور التى يراد فيها البت والحزم يبتها بتاً ويحزمها حزماً ما يشبه حزم الدكتاتورية﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (١) .

حكم مبتوت فيه ، لأنه إذا قضى وحكم فى أمر فقد منع الرأى فيه ، وأبقى التعصب الإيمانى له ، فوفر طاقة الجدل واللجاجة إلى أن تكون طاقة نزوع ، وطاقة تطبيق ، وطاقة مراقبة .

وهناك أمور تركها هو سبحانه وتعالى للنفس الإنسانية التى تتميز بالعقل ، والعقل الذى مظهره الاختيار بين البديلات ، ترك له مجالا لينمى فيه هذه الملكة ، وليكون الأمر بما تنتهى إليه هذه العقول المفكرة ، فيكون الإسلام قد جمع بين الميزتين : ميزة الحزم والبت فى الأمور التى لا يريد أن يؤرجحها أو يجعلها متراخية ، حتى لا تفوت الفائدة ، وأمور تركها إذا جاءت على أى وجه من الوجوه لم يحصل فيها شىء من الضرر .

فى القضية الأولى يقول الحق سبحانه :

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ﴾ (٢) .

وفى القضية الثانية يقول :

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ (٣) .

(وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) (٤) .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٧١ .

(٣) سورة النساء آية ٨٣ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ولذلك كان يقال للمشرع الثاً محمد صلى الله عليه وسلم : أهذا أمر نزل به حكم من السماء ؟ يعنى إن كان قد نزل به حكم من السماء ، فلا رأى لنا فيه ، لأن السماء لها علم ليس لنا . . وإن لم يكن أمر من السماء وكانت الحرب والمكيدة نشير عليك .

هذا يمثل الرأى الحازم ، وهذا يمثل الرأى المستنبط . فمن أراد ديناً أو مذهباً يحقق الأمرين معاً يجده فى الإسلام . ويمتاز الإسلام بأن الدكتاتورية فيه ليست لمساو ، يعنى ليس الدكتاتور مساوياً لك ، لأننى أنا وأنت جميعاً محكومون لإله واحد فوقنا ، آمنا به جميعاً ، وليس له هوى يخشى منه كما هو حال البشر .

إذن هــو يعطينى نزعـة الدكتاتورية بلا هوى ، وبـلا جبروت الدكتاتورية ، وبدون استعلاء الدكتاتور ، وبلا إذلال الدكتاتورية .

فهكذا يجب أن ينظر علماء الإسلام إلى قضايا الإسلام ، فلا يجعلوا الأمور التى زحزحها الله عن مجال الحكم البات الحازم الذى لا اختيار فيه ، لا يجعلوا هذه الأمور ضمن الأمـور التى ترك الله لنـا فيها الحرية والاختيار .

وآفة وجود المذاهب أن الأمر الذى تركه الله للمشورة والاجتهاد والاختيار جعلته كل طائفة أمراً واجب الحزم فيه والبت . . وأن الذى يخالف رأيهم فيه يكون مخالفاً للإسلام .

نقول لهذا : أنت لم تفهم الإسلام ، أمور الإسلام يجب أن تؤخذ من زاويتين : أمور محكوم فيها ، محزوم فيها ، مبتوتة ، وأمور متروكة لنا لنستنبط ونجتهد . . وإلا فلو أراد الله الدين قالب حديد لا نتحرك فيه لسهل ذلك عليه . . . ولكن فى ذلك إهداراً لما خلق الله من الاختيار بين البديلات للعقل إذا قهرنا قهراً على شىء كما قهر الحيوان والجماد على أشياء فسميناها مسخة لا رأى لها ، وتلك سمة تنافى تكريم الله للإنسان حين جعل له اختياراً وخلقه مختاراً .

إذن فآفة المسلمين الذين يمثلون المذاهب ويمثلون الطائفية أنهم جعلوا الأمور التى أباح الله فيها الرأى ، وأباح فيها الاجتهاد ، وأباح فيها الترجيح أموراً محزوماً مبتوتاً فيها ، وليته كان محزوماً مبتوتاً فيه من الله الذى فوقنا ، والذى نؤمن به جميعاً ، ولكنه محزوم مبتوت فيه من جنس البشر . ولو أراده الله هكذا ما استطعنا أن نختلف فيه .

إذن فتلك هى الآفة التى جرأت علينا الخصوم فقالوا : إن الإسلام لم يعد دين تجميع وإنما أصبح دين تفريق .

كان فى الماضى دين تجميع كما قال الله تعالى :

﴿ واذكروا نعمــة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ (١)

إذن فالمسلمون الآن هم الذين فتحوا هذا الباب ، وفتحوا نوافذ جعلتهم يدخلون علينا منها ، ليهدموا لنا قضية إيماننا .

كلامنا الآن ليس مع أولئك الذين يتهموننا بذلك ، وإنما هو مع القوم الذين فتحوا هذا المجال لهؤلاء ليدخلوا .

نقول لهم : راجعوا فهم دينكم من جديد ، واعلموا أن القضايا التى بت الله فيها وحزمها ، قضايا لو ترك فيها الاختيار والحرية والاجتهاد لفسدت السموات والأرض . . . وهناك أمور ترك الله لنا فيها الاختيار ، لأننا على أى حال لن نجتمع إلا على خير . وقد ضربنا كثيراً من الأمثال لهذه المسائل .

انظروا إلى قول الحق جل وعلا فى قضية الدخول إلى الصلاة . والدخول إلى الصلاة يكون بالوضوء ، فآية الوضوء فيها المنهج كله .

﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ﴾ (٢) .

آه لو فطنوا إلى التعميم فى الوجوه وعدم التقيد فيها ، كما قيد فى

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٣ .

(٢) سورة المائدة آية : ٦ .

الأيدى بقوله : ﴿إلى المرافق﴾ . إذن لأراحوا واستراحوا ، وعلموا منهج الله كما يريده الله .

الوجوه لم يحددها الله ﴿ اغسلوا وجوهكم ﴾ وكفى . لم يحددها لأن الوجوه لا اختلاف عند العرب فى مفهومها ، ولكن الأيدى يقع فيها الاختلاف . . مرة تطلق ويراد بها الكف ، ومرة تطلق ويراد بها من الأنامل إلى المرافق ، ومرة تطلق ويراد بها إلى الكتف . وهذا إطلاق يقال له يد ، وهذا إطلاق يقال له يد ، وهذا إطلاق يقال له يد .

فلو أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ترك التقييد فى اليد بقوله : ﴿إلى المرافق ﴾ لكان لمجتهد أن يقول : إلى هنا ، والآخر أن يقول : إلى هنا .

وماذا يكون لو ترك الأمر فيها اجتهادياً لكل مجتهد ؟ يقول : لا . لأن الله يريدها على وجه محدود ، فجزم فيها جزماً انهى الإشكال ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً فيها بعد .

فحين يريد الله حكماً باتاً ، فإنه يخرجه من الإبهام ، ويأتى بالنص بحيث لا يختلف فيه أحد بعد .

ثم قال :﴿ وامسحوا برءوسكم ﴾ . لم يقل : امسحوا رءوسكم ، كما قال : ﴿اغسلوا وجوهكم﴾ . هذا غسل صحيح ، وذاك مسح ، غسل نص عليه بالماء ، ومسح نص عليه بالماء والأمران فيهما اختلاف .

غسل ، يعنى لا بد أن يتقاطر الماء ، مسح ، يكفى إمرار اليد فلا يتقاطر الماء. المهم ما هو الممسوح ؟ لو كان يريد التحديد لقال: ربع رءوسكم ، نصف رءوسكم ، كان يحددها ، ومع ذلك لم يجعلها من باب اغسلوا وجوهكم ، ولم يجعلها من باب أيديكم إلى المرافق ، ولكنه جاء بالباء . والباء لها فى اللغة إطلاقات متعددة ، وتحتمل وجوهاً كثيرة .

وما دام الله قد عدل عن الأسلوب الذى قاله فى ﴿اغسلوا وجوهكم﴾ ولم يقل : امسحوا رءوسكم ، ولم يحدد كما حدد فى المرافق ، فقد جاء بالباء

ليكون إذناً من الله فى أن كل ما تؤديه الباء من المعانى يمكن أن يؤخذ فى إطلاقات الاجتهاد فى هذا الموضوع .

ومن هنا قال قوم : الباء للاستعانة ، ويكون المسح لكل الرأس ، وقال قوم : المسح لا يكون إلا باليد ، فالممسوح هو قدر اليد، وهو الربع. وقال قوم : المراد بعض الرءوس . فكل أخذ من معانى الباء ما يريد ، والله يريدها للإباحة والاجتهاد ، فإذا ما ذهب مجتهد إلى أنها الكل ، ومجتهد آخر إلى أنها الربع ، ومجتهد ثالث إلى أنها بعض ولو شعرة ، فالكل صحيح .

والآفة أننا لم نحترم تعليل الله بوجود الباء لكل أمر مجتهد فيه . . ولو احترمناه لاحترم من قال الكل من قال البعض ، واحترم من قال الربع ، لأن الباء احتملت ما قال ، واحتملت ما قاله الآخر ، وهى فى نطاق الباء شائعة .

ولكن الآفة أن الذى يقول بهذا يحاول أن يجعل قوله هو الأصل . . يا أخى ، لو كان الله يريد من المسألة أصلا لا تتزحزح عنه لكان — وهو صاحب التشريع — أولى بأن يحددها ، ولكنه حين لم يحددها فقد احترم وجهة النظر ، فإذا جاءت على أى وجه فهى مقبولة عنده . وما دامت مقبولة عنده فليس لنا أن نلزم بفعلنا نحن .

وبعض الناس يظن أن ما وصل إليه هو الحق ، وما وصل إليه من غيره هو الباطل ، وهذا لا يمثل وجهة نظر الإسلام . ومن هنا جاء الخلط .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدع المسألة فى فهم نص ، ولكنه جاء لنا بواقع تطبيقى ليدلنا على أن أمر المشرع إن كان محكماً فلا مجال لاجتهاد أحد ، وإن كان محتملا فالمشرع نفسه شرع الاحتمال ، وما دام قد شرع الاحتمال فقد نشأ عن هذا قضية أصولية : هل الحق واحد أصابه واحد من المجتهدين وأخطأه الباقون ؟

ونقول : إن المحكم يكون الحق فيه واحداً . أما المتشابه فالحق فيه متعدد ، والحق هو ما وصل إليه المجتهد ، ما دام المشرع قد جاء بنص يحتمل الاجتهاد

الرسول صلى الله عليه وسلم جاء فى مسألة غزوة الأحزاب ، أو الخندق . لم يكد القوم يستريحون من غزوة الأحزاب حتى أمرهم الرسول بما أوحى الله بواسطة جبريل عليه السلام من أن الملائكة لم تخلع لباس الحرب ، ولا بد أن نذهب إلى بنى قريظة نتأديبهم . . . فقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

يجب أن يتنبه المجتهدون فى الإسلام ، والمشتغلون بالإسلام بوجه عام إلى مثل هذه القضايا ، حتى لا تكفر طائفة بفهمها طائفة أخرى بفهمها ، ما دام الفهمان متواردين على نص واحد يحتمل الفهم ، ومن إله قادر على أن يمنع احتمال النص بالبت فيه بحكم قاطع .

الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا فى الطريق .

ففريق قال : المغرب يوشك أن يأتى ، والشمس توشك أن تغيب ، ولم نصل العصر إلى الآن ، ونحن فى طريقنا إلى بنى قريظة كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نصلى العصر الآن .

وفريق قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » ولم نصل بعد إلى بنى قريظة .

قوم صلوا . . . وقوم لم يصلوا . . . ولما ذهبوا إلى المشرع صلى الله عليه وسلم أقر هؤلاء وأقر هؤلاء .

إقراره لهذا ولهذا كان يجب أن يكون دستوراً للفاهمين عند الله ، والفقهاء الذين يستنبطون الأحكام من الله ، وأن يعلموا أن الله والرسول حين يترك نصاً محتملا للفهم يجب أن يحترم كل فريق رأى الفريق الآخر ، أو يعتبره على الأقل مساوياً لفهمه . أو يقول : أنا أصبت الحق ويحتمل الخطأ . ورأى خصمى خطأ يحتمل الصواب .

وهنا أكون قد احترمت المرجح لى فى الاستنباط لكننى لم أتهم سواى . حينما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر هذا وأقر هذا فى أمر

لم يرد الرسول أن يكون محكماً . فمن صلى لم يخالف .، ومن لم يصل لم يخالف ، فهما سواء مع الأمر الآخر .

وإذا أردنا أن نقعد هذه القاعدة لتوضيحها نقول :

الصلاة حدث ، والحدث له زمان وله مكان ، ولا يوجد الزمان والمكان إلا إن وجد الحدث ، وإن وجد الحدث لا بد أن يكون له زمان ومكان . . . والصلاة حدث يطلب منا الإيمان أن نفعله ، والرسول هنا قال قولا حدد ماذا؟ حدد الحدث ، ثم قال : « إلا فى بنى قريظة » . فحدد المكان ، وترك الزمان.

فالذى تعصب أن يصلى قبل مغيب الشمس قال : إن الحدث له زمان ، فاحترم الزمان ، وقال : أنا أصليه فى زمانه فى أى مكان . والذى تعصب ألا يصلى قال : « إلا فى بنى قريظة » فأنا أصليه فى المكان فى أى زمن .

فالرسول صلى الله عليه وسلم احترم هذا واحترم هذا ، لأن كلا منهما نظر إلى طرف من طرفى الحدث .

كل الأحكام الاجتهادية التى تركها التشريع للبشر فيها إذن من الله أن كل ما وصل الاجتهاد يقبله الله ، ويعتبره حقاً .

ولكن المجتهدين أو أتباع المجتهدين أو المريدين يجعلون فهمهم هو الأصل ، فكأنهم نقلوا الإحكام من المشرع إلى الإحكام فى الفهم .

نقول لهم : لا . لا حق لكم فى ذلك ، فلو أراد الله الحكم باتاً لبينه باتاً﴿ ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ .

إذن الشىء الذى ينفذ منه خصوم الإسلام هو ما يفعله بعض علماء الإسلام ، أو بعض أتباعهم ، حين يرون فى اجتهاداتهم التى أباح الله الاجتهاد فيها أصلا لا يصح أن يترك ، ومن هنا نشأت النكبة على المسلمين فى جميع بقاع الأرض .

ولذلك نجد إسلام دولة منتقداً من إسلام دولة أخرى ، لأنهم أرادوا أن يجعلوا من فهمهم للأمور المجتهد فيها نصاً محكماً ، ومن خالفه فهو مخطئ . ولم ينظروا إلى آثار ذلك من الهجوم علينا فى أن الإسلام لم يعد دين تجميع ، وإنما أصبح دين تفريق .

ونحن فى البلد الواحد نشاهد ذلك الآن . فنى كل حى طوائف ولو نظرت إلى إسلام هؤلاء لوجدته بعيداً عن إسلام هؤلاء ، لماذا ؟ لأنهم جعلوا لشيوخهم فهماً من لم يسر عليه فهو مخالف للإسلام ، ألم ينظروا إلى تبعات هذه الأشياء ، هذه التبعات التى سنشقى بها طويلا من خصوم الإسلام .

التحقيق والتطبيق

وقد ذكروا صفحات طويلة عن مصر . . وفيها : نريد أن نسأل المسلمين فى مصر ، وفيها الأزهر الذى يدعى أنه الحريص على الإسلام ، والمحافظ عليه :

أى الإسلام هو الخير وهو الحق : هل هو الإسلام فى المساجد التى تديرها وزارة الأوقاف ، أو الإسلام فى المساجد الأهلية التى تنبث فى سائر أنحاء القطر ، ويقوم فيها أناس يهاجمون الإسلام فى المساجد الأوقافية ؟

وهم معذورون فى ذلك . . . لأن مصر فى الحقيقة هى بلد تحقيق الإسلام . وتحقيق الإسلام معناه : توضيح قضاياه توضيحاً لا لبس فيه . . . ومصر وإن لم تكن البلد لتطبيق الإسلام ، فلا يجادل أحد فى أنها البلد لتحقيق الإسلام .

وهم لا يتكلمون عن تطبيق الإسلام ، لأنهم يقولون : إن جمهرة المسلمين فى مصر لاتطبق الإسلام . . . إذن فهم يحاكمون مصر لا من أجل تطبيق الإسلام ، ولكن من أجل تحقيق الإسلام . . فيسألون :

أى إسلام هذه المساجد هو الحق عندكم وعند الله ، هل هو إسلام المساجد التى ينادى فيها بعد الأذان بالصلاة على رسول الله ، أم إسلام المساجد الأخرى التى تقول ان هذا عمل مخالف للإسلام ، وتحمل عليه حملة عنيفة ؟

ونقول : هم محقون فى هذا ، لأن كثيراً من الذين يؤذنون يجهلون الموقف الحق للدين من هذه المسألة ، ويعتبرون المسألة أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدين ليس أدباً فقط ، وإنما هو فى الأصل طاعة . . والطاعة هى الأدب .

يجب أن نطيع رسول الله فيما شرع رسول الله . ولا تتجمل أنت على رسول الله بما لم يشرعه رسول الله . فالأذان أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة ، وبلا صلاة عليه فى آخره . .

صحيح أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على» . فالذين التزموا الأدب قبل الطاعة جعلوا المؤذن مع المصلين عليه ، وهذا لا شك فيه ، المؤذن يصلى عليه بعد الأذان . . . ولكن ليس بلهجة الأذان الجاهرة ، بل يصلى عليه فى سره حتى لا يدخل على الأذان ما ليس منه ، لأن الدين دين طاعة وأدب ، وليس دين أدب فقط .

حين يأخذون علينا هذا يجب أن نحمد لهم أنهم نبهونا إلى شيء لم يكن وجوده ضرورة فى الدين ، ولكن وجوده أدخل التشكك فى نفوس غير المتدينين ليدخلوا منه على الدين ، فقالوا :

أى الإسلام خير ؟ هذا يقول : ذاك باطل ، وذاك يقول : هذا باطل ، وهكذا إذن فما أحرانا أن نتجنب هذه الأشياء .

نحن نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعظمه ، ونبجله ، ونوقره ، ونزداد منزلة عند الله عندما نصلى عليه ، ولكن لكل مقام مقاله التشريعى ، فما دام ذلك لم يرد فى الأذان فليصل المؤذن والسامع فى سره على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك نقطع على مريدى الكيد للإسلام منفذا يدخلون منه على الإسلام ، مما يغضب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هناك أشياء كثيرة يكون الأدب فيها شيئا ، والطاعة شيئا آخر .

وكذلك يقولون : قولوا لنا : أتقولون أيها المسلمون : اللهم صل على محمد ، أم اللهم صل على سيدنا محمد ؟ وتقولون : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أم أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ؟ .

ونقول : أما الشهادتان فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » : وحين كان يصلى كان يقول فى تشهده : وأشهد أن محمداً رسول الله ، فإن أردنا الطاعة فلنفعل هذا .

ولكن الناس ينفعلون عند ذكر رسول الله بالحب ، فيستنكفوا أن

يذكروا اسم رسول الله دون أن يقدموا له بسيدنا . . وهم مشكورون على هذا ، ولكن الأدب شيء والطاعة شيء آخر .

الطاعة . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

ولكن الذين وقفوا ضد هذه المسألة ليخطئوا من يحذف السيادة حاولوا أن يحتجوا لذلك ، وما كان أغناهم أن يحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل : وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله فى التشهد ، لأنه لا يقول عن نفسه هذا . . ما كان أغناهم عن أن يلتمسوا دليلا ، لأننا نصلى كما صلى ، وهو مطلوب منه أن يصلى على نفسه ، ولم يقل : اللهم صل على سيدنا محمد ، فنحن نصلى مثله . إذن ليس فى ذلك قدح .

أرأيت لو أنك قرأت القرآن كله فى ركوعك ، ولم تقل سبحان ربى العظيم ، أكنت قد أديت الصلاة كما يريدها الله ؟ ولو قرأت القرآن مكان التشهد ما نفعك . فالطاعة شيء ، والأدب شيء آخر .

وما يدرينا أن الله تعالى يأتينا بأشياء قد يتطلب الأدب فيها وصفاً . ولكنه يريد بأمره أن يخرجنا عن هذا الأدب . . العبودية التزام لا عبودية أدب فقط .

إذن ما أغنانا عن الدخول فى هذه المتاهات .

وعلى الذين يأتون بعد الأذان ويعلنوها صلاة أن يصلوا فى نفوسهم سراً ، وما على الذين يؤدون التحيات إلا أن يؤدوها كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونستغنى بذلك عن أن نقول احتجاجاً لرأينا : قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تسيدونى فى الصلاة .

ونقول لمن يورد هذا الدليل : هذا الكلام لا يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم بطلان الدليل لا يمنع صحة المدلول ، ونحن لا نناقشك فى أننا يجب أن نمنع هذه البدعة ، لكن لا يصح لك أن تورد هذا الدليل .

وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش » . لأن قريشاً تعطيه فصاحة أكثر .

فلو كانت هذه المقولة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقال : لا تسودونى فى الصلاة ، لأن الفعل ساد واوى ، ساد يسود ، فلا تكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا سيما وأن القضية مؤيدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة الفعلية ، صلوا كما رأيتمونى أصلى . بل إن هذه القضية برمتها تورث الشقاق والعراك بين البلاد والفئات ، وهو عراك يسجل علينا ، ويستغل ضدنا .

القبور فى المساجد

ومما قالوه أيضاً : إن كثيراً من المسلمين يكفرون من يصلى فى مسجد ألحق بقبر من القبور . وهذا واقع ، وله آثاره .

ولذلك كان يجب أن نجلس لنفهم هذه المسألة . فالمانعون يتخذون من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . دليلا لهم . وهذا هو دليلهم .

نقول : القبر عندنا لم يتخذ مسجداً . . فالقبر هو المكان الذى دفن فيه الميت ، هو مضجع الميت . فهل اتخذ المسلمون القبر مسجداً ؟ أبداً ؛ لم يتخذوه مسجداً ، وإنما جعلوا القبر قبراً ألحق به مسجد وحول القبر شىء اسمه « المقصورة » .

وكلمة مقصورة معناها شىء محبوس على القبرية لا يتعداها إلى شىء آخر . وربما جعلوا سياجات : سياجا من خشب ، وسياجا من حديد ، لئلا يتخذه أحد مسجداً .

ثم نقول : هل اشترط أحد أن تصلى فى مساجد فيها قبور ؟ لم يشترط أحد ذلك ، فما أغنانا عن أن نجعل نفس القبر أو المقام مسجداً ، ما دام الشرع لم يأمر به ، وبعد ذلك ندخل فى عراك مع الغير .

لماذا لا نغلق هذه المسألة ؟ الذى يريد أن يحمى الإسلام لا يجعل فيه ثغرة للغير يدخل منها إليه بالنقد ؛ ذلك ما يمكن أن نقوله للمجيز وللمعارض ، نتكلم مع هذا ومع ذاك .

إذا أقنعتهم بأنهم لا يتخذون القبر مسجداً يقولون لك : إنهم يصلون فى القبر . نقول : يا سيدى سواء مرة يجعلون القبر وراءهم ، ومرة يجعلونه أمامهم.والأمامية غير ملحوظة ، ومرة يجعلونه عن أيمانهم ، ومرة عن شمائلهم .

ولكم فى مسجد رسول الله أسوة ، فهناك من يصلى فى الروضة ، ويكون قبر الرسول وأبى بكر وعمر على اليسار ، ويصلون فى منزل الوحى ويكون القبر على اليمين ، ويصلون فى الصفة ويكون القبر أمامهم ، ويصلون فى المواجهة،والقبر خلفهم. ومضى على ذلك علماء المسلمين دون ذكر منهم.

يقولون : إنه مسجد رسول الله . ونقول لهم : وفيه أبو بكر وعمر ؛

كان يجب أن ننهى هذه المسألة بيننا ، لأن أثرها ليس فيما بيننا ؛

صـــور من الربا

أتعلمون أن مسألة جرت بشأنها مناقشات بين العلماء ، ولم يمض على نشرها شهر أو شهر ونصف حتى دونت فى هذه الكتب التى صدرت ضد الإسلام ؟ مما يدل على أن الضالعين فى هذه الحركة هم من خصوم الإسلام الذين يكتبون الوقائع .

إنهم أثاروا ضجة حول شهادات الاستثمار ، وحول فوائد البنوك الربوية ، وحول من قال من العلماء بحلها ومن قال بحرمتها وقالوا :

أين الرأى الذى هو رأى الإسلام . . هؤلاء علماء وهؤلاء علماء ؟

وما كان أغنانا عن أن نعطى أعداء الإسلام أسلحة يتهجمون بها على الإسلام . وما كان أحرانا أن نضع أمامنا أن الحلال بين والحرام بين .

نقول لكل فريق من المبيحين والمحرمين : أهذا هو رأى العلماء بالإجماع ؟ يقولون : لا . **نقول لهم** : وما رأى بقية العلماء دونكم أنتم الذين تعدون على الأصابع يا من تقولون بالحرمة . ما دام جمهرة العلماء قالوا بالحرمة ، وبعضكم قال بالحل ، فعلى الأقل لن ننسخ رأيكم برأى الجمهور ، ولكن نستخدمه ، ولكن أنت تمثل وجهة نظر ، وهم يمثلون وجهة نظر ، وهذا يدخل فى المشتبه .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يحسم قضايا الخلاف . وقضايا الخلاف دائماً هى مثار الفتنة . . فهم يقولون : أى آراء العلماء صحيح ؟ وأى الإسلام صحيح ؟

أنتم أيها العلماء المبيحون تقولون : نحن نعيش العصر . وقولكم : نحن نعيش العصر معناه أن العصر هو المشرع . نقول لهم : ضعوا عباراتكم . قد تقولون هذا عن حسن نية ، ولكن رجل الدين دائماً يقول : نحن نعيش الدين ، وليخضع العصر أنفه لمنطق الدين .

هل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القضية بدون حسم ؟
لا . بل هو قال : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات » ؛ أى يخفى فيها وجه الحل أو وجه الحرمة « فمن ترك ما شبه له فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

فها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك هذه القضية ، بل حكم فيها ؛ لماذا رجح الرسول جانب « ترك » على جانب « فعل » ؟ لأنه يتكلم عن الاستبراء للدين والعرض : فإن أردت أن تستبرىء لدينك ولعرضك فاترك أن تفعل ، واجعله حراماً . وإن لم أجعله حراماً ، ولجأت إلى جانب التحايل ، فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فمن ترك » . مخالفة صريحة .

وإذا كان الذى ترك قد استبرأ لدينه وعرضه ، فمن لم يترك لم يستبرىء لدينه وعرضه .

وهل الدين مخالف للعرض ؟

نعم . . استبرأت لدينك ، يعنى : أنك ستستبرىء أن يأخذ واحد عنك حكماً ، ويبقى وزره عليك مدى الحياة ، واستبرأت لعرضك يعنى : لئلا يلغ الناس فى عرضك ويقولون : دينه رقيق ، غير متمكن ، وتكون قد تسببت لهم فى الوقوع فى الغيبة .

إذن لا بد أن نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك مثل هذه القضية ، وإنما شرع لها . . وحين شرع لها ، فقد أخرجنا من المشتبه . . فعلى هؤلاء العلماء أن يلتفتوا جيداً إلى النص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقولوا قولة الحق فى مثل هذه المسائل ، حتى إنهم إن فتنوا بآرائهم ، وفتنوا بفتاواهم ، يعودون سريعاً إلى حظيرة الحق بالحق . وحينئذ يكونون قد استبرءوا بحق لدينهم وعرضهم .

وعلى الذين يستقبلون هذه الفتاوى — إن لم يجدوا من العلماء من يترك

هذه الشبهات حتى يستبرىء لدينه وعرضه — أن يستبرئوا هم لدينهم وعرضهم، لأنه سيأتى اليوم الذى يتبرأ فيه المتبوعون من التابعين ، ويقول التابعون : ﴿ لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ﴾ (١) .

ويجب أن يعلم هؤلاء العلماء أنهم سيلجون بهذا الفعل ضلالا فى اعتقادهم ، وإضلالا لغيرهم ، وذلك وزر ، وهذا وزر آخر ، ليصدق فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ (٢) .

وأقول للذين أخشى أن يفتنوا بهذه القضية : جربوها فى أنفسكم . واسألوا من كان يتعامل فيما يقول هؤلاء : إنه حلال ، كيف كان حاله من قبل ، وكيف صار حاله بعد أن ترك هذا .

كل واحد حجة على نفسه ، أسأل الله لهؤلاء أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأسأل الله لمن يريدون أن ينتفعوا بهذه الفتوى أن يفيقوا من سكرهم .

ويجب علينا جميعاً أن نعلم أن كل خلاف يجد بين المسلمين خلاف يستغل ضد الإسلام ، فالذى يسمع شيئاً من هذا ، إما مفتياً وإما سامعاً ، وإما مطبقاً ، سيكون ممسكاً بمعول ليهدم به قضية الإسلام .

وإذا ما تركنا هذا الأمر جانباً ، فيجب أن نعلم أن هناك اناسا لم يقدروا على أنفسهم لينصاعوا لحكم الله فى حركة حياتهم ، فمن حظهم أن تكون قضية الدين قضية كاذبة ، ومن حظهم أن يتخاصم رجال الدين ليجدوا لأنفسهم مبرراً فى أنهم لم يلتزموا .

وهؤلاء جميعاً مجرمون عندنا ، العلماء ، والمطبقون للفتاوى غير الدقيقة التى يقول بها بعض العلماء .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٦٧ .
(٢) سورة النحل آية : ٢٥ .

فريـــة تضـــارب الرسول مع القــرآن

ويقولون بعضهم لبعض عن المسلمين : جادلوهم بمنطق القرآن ، ومنطق الحديث . مما يدل على أن المخططين لهذا الأمر قرءوا القرآن جيداً ، وقرءوه بفهم ، وقرءوا الحديث جيداً ، وقرءوه بفهم . إلا أنهم لم يقرءوه بنور . . وهناك فرق بين الفهم والنور : الفهم : أن يأخذ القضية ويجد لها مبرراً سطحياً ، ولذلك قالوا : القرآن فيه تناقض ، بينما هو ظاهره التناقض فقط ، لأن القرآن من لدن حكيم ، وكل شىء فيه له حكمة وله معنى :

القرآن يلح علينا فى أن نتدبر . معنى التدبر : ألا ننظر إلى واجهة معطيات الأشياء فقط ، ولكن ننظر إلى خلفيات المعطيات من دبر الأشياء .

المؤمن ينظر إلى الأمام والخلف . . والمخالف ينظر إلى الأمام فقط . . إلى المواجهة ، فإن كان الظاهر التعارض . قال : إنه متعارض ، ولا يتدبر .

قالوا : الرسول الذى جاء القرآن على لسانه ، وقال : إنه من عند الله أول من تضارب مع القرآن . كيف يقول القرآن : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾(١) . ثم يأتى فيقول : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » . ومعنى أنتم أعلم بشئون دنياكم كما يقولون : أن ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ نص غير فعال على رأيهم .

ونقول : الذى قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » أليس هو رسول الله ؟ نعم هو رسول الله . أليس الذى قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ هو الله؟ نعم هو الله . هل قبض محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يقول الثانيـــة ؟ إذن هو بلغ هذه وقال هذه . إذن لا بد أن تكون الجهة منفكة .

الله قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ . وفى النهاية آتانا الرسول فقال :

---

(١) سورة الحشر آية : ٧ .

« أنتم أعلم بشئون دنياكم » . إذن هناك وجهان للمسألة . وإنما يأتى التضارب إذا كانت المسألة منصبة على شيء واحد .

الإسلام جاء بقوانين. هناك أمور تختلف فيها الأهواء ، فتدخل فيها ، حتى لا يختلف الناس فيها . وهناك قوانين علمية خاضعة للتجربة ، ولا دخل للهوى فيها ، لأننا لا نرى عالماً من العلماء يدخل معملا ليتفاعل مع العناصر بهوى عنده . . لو دخل بهوى لا ينتج . بل هو يدخل بغير هوى ، وما تعطيه المادة الصماء يكون هو القانون . وهذا لا يقنن له الإسلام .

إذن هناك أمور مادية كونية تجريبية . وأمور تخضع للهوى . وإذا نظرنا إلى العالم المعاصر وجدنا هاتين الموجتين تحكمان حركة الحياة فيه : حركة خاضعة للهوى ، وحركة خاضعة للعلم والتجربة . وسنجد التجربة حكمت الجميع فلم يشذ عنها واحد ، وسنجد الهوى فرق الجميع فلا يجتمع عليه اثنان .

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يقول ذلك إنما يضع قاعدة كلية عامة تسير جنباً إلى جنب مع منهج الله السماوى . فمنهج الله السماوى أن الله خلق الكون بنواميسه وعناصره وأجناسه وقوانينه ، وهذه الأمور تخضع للتجربة المعملية ، سواء قام بها مؤمن أو كافر . فهى تعطى ثمرتها للمؤمن والكافر معاً كما أن الله سبحانه يعطى العطاء ويؤتى خير الأرض لمن آمن به ومن كفر به على السواء .

وفى هذه القضية يجب أن نفرق بين إمامة المسلمين حين يضعها الله فيمن يؤتمن عليها ، وبين رزق أهل الأرض . فإبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الله بكلمات . أى مطلوبات ، فأتمهن . أى أداهن على أكمل ما يكون الأداء ، قال الله له : ﴿ **إنى جاعلك للناس إماماً** ﴾(١). لأنك أؤتمنت على مطلوبات الله فأديتها على خير وجه . فأنت أهل لان تؤمن على الإمامة . قال إبراهيم: ﴿ **ومن ذريتى** ﴾ (١). فقال الله تعالى : ﴿ **لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٢٤ .

فكأن الإمامة عهد من الله للمأمون عليها ، وتلك مسألة لا تخضع للجنس ولا للدم ، ولا لنسب اللحم. لقد قال الله : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ وإن كانوا من أبنائك . وهذه قضية أخذها إبراهيم من ربه .

ولذلك حينما ذهب إلى الوادى غير ذى الزرع دعا الله بموجب الحنان لابنه وزوجته أن يرزق هؤلاء من الثمرات فقال : «﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ (١) — من آمن ومن كفر — أرزقه أيضاً . . لأنك خلطت بين عهد الإمامة الإيمانية وبين الرزق .

فحين قلت : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ سجلت الأمر على الرزق فقلت : « من آمن » فقال الله : « ومن كفر » .

إذن فمسألة الرزق بنواميسه يستوى فيها المؤمن والكافر ، ولذلك كانت كل التجارب فيه لا تخضع لقضية الإيمان ، لكن تخضع لقضية الحركة فى الأرض . فمن تحرك أوتى خيرها ، وإن كان كافرا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نهاهم عن تأبير النخل أى تلقيحه ، أخذها من قضية أن الله سبحانه يخلق ما يشاء ، وأنهم لو لم يلقحوه لصلح النخل . ولكن المسألة التجريبية خذلت هذه الفكرة . فجاءت التجربة بأن النخل شاص . فماذا يكون موقفه ؟

موقفه أن يرد المسألة إلى الربوبية وقضية الأسباب ، وإعطاء التجربة حقها ، وتجعل التجربة على لسان المشرع صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يعطى التجربة ، ويعطيها المعنى . فالسماء لا دخل لها فيها ، لأنها آتت أسباب الرزق ، وأنتم تجتهدون ، فقال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

---

(١) سورة إبراهيم آية : ٣٧ .

فرسول الله هو الذى منع التأبير ، وهو الذى قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » . فيجب أن نأخذ قضية أنتم أعلم من القضية المنهى عنها وهى قضية التأبير . . وهى قضية تجريبية معملية .

إذن فالرسول يجعلها فى نفسه وفاقاً للمشرع العالم حين يضع قضية فيجعلها مطبقة على نفسه أولا . فلم يمنعه أى اعتبار من أن يؤصل هذه القضية لتكون دستوراً للعالم كله فى كل أمر تجريبى ومعملى .

والقضايا التى يجد الحق فيها غضاضة على النفوس كان يأتى بها على حكم الرسول فى نفسه وفى شخصه . ولذلك قلنا : إن النبى صلى الله عليه وسلم تحمل مسألة إبطال التبنى فى شخصه . فكان التبنى معروفاً عند العرب ، فجاء الإسلام ليبطله ، لأن المسألة فى التبنى تتعدى جميع الآثار إلى قضية البنوة ، فإذا جعلت الولد إبناً لك ولك ابنة ، أيصح أن يراها ويعاشرها ؟ فالمسألة حينئذ تتعدى مسألة الحنان إلى مسائل أخرى .

فالإسلام حين أراد أن يبطل التبنى ،وهو شائع فى العرب ، كانت التجربة فى الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم ، مع أن هذه التجربة قد جرت علينا متاعب كثيرة ، حتى قالوا : لقد تزوج الرسول زوجة ابنه . ولكن قضية زواجه هى نفسها قضية زيد . قال الله له : تزوجها لتثبت لهم بطلان التبنى . ورسول الله دائماً هو موضع الأسوة الراقية . . المسلمون فقراء فعاش فقيراً مثلهم ، هم يلبسون ملابس متعددة وهو يلبس لباساً خشناً ، إذا تكلم معه أحد لا يذهب حتى يذهب هو ، وإذا أخذ أحد بيده لم يسحب يده حتى يسحبها هو .

وكذلك هو فى قضية تأبير النخل ، فكأنه يقول : أنا أتدخل فى أموركم التى تخضع للهوى . . هنا تتدخل السماء لتعصمكم من اختلاف الأهواء

ولكن المسائل المحكومة بقوانين صماء جامدة فهى تعطى نتيجة واحدة . ولا تختلف باختلاف الهوى معها .

العالم الآن تسوده موجتان : الأولى موجة نظرية ، أى فيها الهوى . والثانية موجة معملية . والحضارات التى نعيشها الآن حضارات معملية ، مبنية على التجربة التى اكتشفت كثيراً من أسرار الله فى الخلق ، فاستفدنا بها ، وأثرت فينا .

ونحن نعجب لأن الأمور الأهوائية النظرية يحاول كل صاحب نظرية أن يمنع النظرية المقابلة من أن تتسلل إليه ، فيضع العوائق والسدود أمامها . أما الأمور المعملية فيحاول أن يتلصص عليها ويسرقها ، ليستفيد منها .

إذن فالأمور المعملية لا هوى فيها ، بل الأمور فيها خاضعة للتجربة ، والتجربة لا تجامل ، فالله سبحانه وتعالى أنطق رسوله بأن يقول : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » أى هذه المسائل التجريبية ما دمتم جربتموها ، فالسماء لا تتدخل فيها ، لأن السماء وهبت الشىء ، ووهبت العقل ، ووهبت الناموس ، ووهبت العقول والجوارح لتعمل .

ظلم العلماء

ومن الأشياء التى عابوها على ديننا : أن العلماء الذين ابتكروا الأشياء النافعة والمفيدة وبخاصة فى مجال الأمراض التى تفتك بالبشر ، فكان ما ابتكروه نهاية لتلك الآلام . . والعلماء الذين أفنوا حياتهم فى ابتكار أشياء ترفه عن الناس، وتسعدهم، وتوفر عليهم جهدهم ، لأنها تعطيهم الثمرة بأقل مجهود وفى أقل زمن . . قالوا : الإسلام يقول : إن الله لا يجازيهم ، وليس لهم عند الله نصيب .

يريدون أن يحمسوا الناس ضد الإسلام الذى يقول هذا ، لأنك إذا عولجت من مرض بدواء ابتكره عالم غير مسلم قلت : وهل الإسلام يحرم هذا العالم من الجزاء ؟ فكأن الإسلام لا يعدل فى الجزاء .

وهؤلاء نقول لهم : ما حظ الإنسان من حركته ؟ مطلق الإنسان ، لماذا يتحرك فى الحياة ؟ يتحرك الإنسان لغاية أولى هى نفع نفسه اقتياتاً لإبقاء حياته ، وكذلك من يعوله . فإذا ما فعلت لإنسان شيئاً ففعلك هذا أساساً لتأخذ أجراً ، لتأخذ القوت وتقتات . . والذى فعلت له ما مقصده ؟ مقصده أنه لا يقدر على الحركة ، فجاء بك لتتحرك له هذه الحركة . وبالتالى لابد أن تكون حركتك هذه نافعة له .

إذن فحركتك إما أن تكون نافعة لك ، أو نافعة لغيرك . لماذا أعطاك غيرك الأجر ؟ لأنك فعلت له . فعلت له أو لنفسك ؟ فعلت لنفسك أولا : ولماذا أعطاك الأجر ؟ أعطاك الأجر من أجل نفسه هو .

إذن فقضية الأجر على العمل إما أن تكون عند الفاعل المباشر ، أو تكون عند المفعول له .

أيعمل لك واحد عملا ، ثم يطالب غيرك بالأجر ؟ الأجر يدفعه من

عملت له . وهذا الكافر ، أكان الله فى باله ساعة ابتكر ؟ أكان الله فى باله ساعة أتعب نفسه فى معمله ؟ لا . إنما كان فى باله جاهه وشرفه بالعلم ، وشهرته والمال . إذن لم يكن الله فى باله .

إذن فالذى عمل من أجله أعطاه الأجر ، تقديراً وتكريماً ومالا وشهرة وشهادات.فإذا ما جاء الله يوم الجزاء أيعطيه أجراً وهو لم يكن فى باله ؟

هذا هو الفارق بين المؤمن والكافر ، حتى فى العمل الذى يقوت به الإنسان نفسه . . الكافر يعمل لذاته ، والمؤمن يعمل لأن الله أمره أن يتحرك حركة تسعه وتسع غير القادر على الحركة .

فالله فى باله ما دام يتحرك حركة فوق حاجته ، لأنه يقضى حاجته ويرد الباقى على غير القادر . فالله يعطيه الجزاء .

والحق يصور لنا هذه الصورة تصويراً واضحاً فيقول :

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ﴾ (١) .

ويقول :﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ (٣) .

فماذا تنتظر أن يعطى الله لمن لم يكن الله فى باله ساعة فعل . . هذه عدالة . . اجتهد فأعطاه الله النتيجة . أخذ حظه من الدنيا ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « فعلت ليقال وقد قيل » .

إذن إذا حدثنا بأن الذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة فليست هذه نظرة الإسلام فقط ، بل هى نظرة الأديان جميعاً .

فإذا جاءت آية ﴿ إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ﴾(٤) . فأجره أن الناس تقدره ، وتصنع له التماثيل ، ويعطونه الجاه ، ويعود عليه عمله بالمال الوفير فى الدنيا ، إنما عند الله فلا شىء له .

(١) سورة النور آية : ٣٩ .
(٢) سورة الكهف آيتا ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٢٣ .
(٤) سورة الكهف آية : ٣٠ .

الإسلام والتخلف الحضارى

ومن الأشياء التى يذيعونها ، ويؤثرون بها على الشباب المسلم أنهم يقولون : إن إسلامهم أوقفهم فى الأرض موقف التخلف ، وجعلهم فى الأرض فى منزلة الأتباع دائماً . . يعنى أن العالم الإسلامى كله فقير متخلف.

ونحن لاننكر هذه القضية ، ولكن حتى لانبثها فى نفوس شبابنا فيقفوا ضد الدين نقول لهم : أو ذلك الأمر الذى عرض للمسلمين فى هذا العصر، كان أمراً لازما لهم فى كل العصور كمسلمين ؟

الجواب منهم : لا ، لأنهم كانوا يسمون عصورهم فى أوربا بالعصور المظلمة فى القرون الوسطى ، ونحن كنا فى غاية الارتقاء . . فالرشيد أرسل إلى شرلمان ساعة دقاقة تدق بالماء، فلما وصلت إلى فرنسا قالوا: إن فيها شيطانا .

وإذا ما أردنا أن نعرف مدى ارتقاء المسلمين بالإسلام فعلينا أن ننسب كل علم موجود الآن إلى أصله . . لنجد أن بذرته والرواد الأوائل فيه من علماء المسلمين ، وهم كانوا القنطرة التى عبر عليها الأوربيون إلى حضارتهم . وهذا باعترافهم .

ولذلك نجد الآن فى مكتبة الكونجرس أن الرسم المعملى للأرض هو صورة عربى أمام إنبيقه ، مما يدل على أن المسلمين هم بذرة كل حضارة .

إذن فالتخلف ليس من طبيعة الإسلام . وإنما هو أمر طارىء على تحضرنا ، وهذا هو إقرارهم بأنفسهم . كما يقرون بأنهم أخذوا عنا كل شىء يدخل فى تكوين حضارتهم .

إذن فالإسلام جاء منذ أربعة عشر قرناً ، وأول من تأثر به أمة أمية متبدية ، وبعد ذلك قادت به أمما متحضرة كبرى هى : الروم والفرس ، وحكموهم بالنظام الإنسانى الراقى . . جماعة أمية جاءوا بالقوانين ، وطبقوها على الأمم على اختلافها .

ويشاء الله أن يجعل هذا الانتصار على جناحين : جناح شرقى فى فارس ، وجناح غربى فى الروم ، وهما أكبر دولتين متحضرتين فى العالم آنذاك .

وحينما رأوا ماجاء به الإسلام من نظام يحكم قضية الحياة ، ويدير سياسة الدنيا ، تهافتوا على الإسلام ، وعلى هذه الحضارة ، ولذلك ذهب الإسلام بقوتين : قوة اندفاع المعتنقين ، وقوة الجـذب للطالبين . هذا دفع ، وهذا جذب . وهذا هو الرد على التعجب من انتصار الإسلام على يد أمة متبدية لا حظ لها من التقدم ولا الحضارة .. حدث ذلك لأن القوتين كانتا تعملان فى قوة : المسلمون يندفعون لينشروا دينهم ، والعالم المتحضريئن من آلام الحضارة ، فحين رأى ذلك النور انجذب إليه ، فأصبحت هناك قوة تدفع ، وقوة تجذب ، وهما قوتان كفيلتان بنشر الدين فى أرجاء العالم .

وإذا نظرنا إلى القضية نظرة ذاتية إيمانية يجب أن ننظر إلى المسلمين أنفسهم فى هذا الموضع لنعرف أن واقع المسلمين كمسلمين خذل قضية الإسلام كإسلام ، لأن الأعداء جعلوا من حال المسلمين حكماً على الإسلام ومنطقة العزل يجب أن تعزل بين الإسلام كدين ، وبين من يدعى أنه نسب إلى الإسلام فهو مسلم .

أى دين إذا اتبعه تابع له فقد يحكم على هذا التابع بأنه طائع ، وقد يحكم عليه بأنه عاص ، فلا تأخذوا من تصرفات العصاة حكماً على الإسلام . ولذلك فالذين يأخذون هذه التصرفات يقولون صادقين : إننا أمم متخلفة . ولكن الحق أن هناك مسلمين متخلفين ، وليس هناك إسلام متخلف .

لو نظرنا على التحقيق لوجدنا أنهم تخلفوا لأنهم لم يكونوا مسلمين ، إذن فالتخلف ليس لكونهم مسلمين ، بدليل أنهم حين كانوا مسلمين كما عرفناهم فى التاريخ كان دينهم هو الغالب ، ووجدنا الحجة للإسلام فى أن الكنيسة كانت تسيطر على أوربا ، وتقبض بيد من حديد على حركة كل مفكر فيها ، فلا يمكن أن يفكر حتى فى علم معملى مادى . وكم عذب العلماء فى ليل العلم .

وكانت النتيجة أن الفكر كبت ، وأن العلماء اضطهدوا ، مما جعل المفكرين يبتعدون عن هذه المنطقة ، وكان من نتيجة ذلك أن وجد عهد اسمه العهد المظلم ، فلما قامت الثورات ضد الكنيسة ، ووضعت الكنيسة موضعها الطبيعى ، وجعلت سلطة البابا بعيدة عن نشاط العلم ، بدأت أوربا ترتقى .

فلما ارتقت أوربا جاء الذين يكرهون الدين فلم يقولوا : إن الكنيسة كانت تسيطر على العلم والعلماء فنشأ التأخر ، بل قالوا : إن الدين عوق الحضارة . . فلما حملوا الدين عبء الكنيسة ثبت عندهم أن الدين معوق للحضارة . . أخذوها قضية عامة نقلوها من سلطة البابا ، إلى سلطة الكنيسة ، إلى الدين نفسه .

وهذا الدين الذى تحدثوا عنه هو الدين المسيحى فى أمم مسيحية . ولكنهم نقلوه إلى المستغربين من أبنائنا ، ونشروه بواسطة أبواق المستشرقين ، وقالوا : إن الدين مطلق دين هو سبب التخلف . . والمستغربون من أبنائنا قلدوهم وقالوا : إن الدين سبب التخلف . . أخذوها من أوربا ، من سلطة البابا ، ثم نقلوها نقلة إلى الكنيسة ، ثم نقلوها نقلة إلى المسيحية ، ثم عمموها فى كل الدين .

أبواقنا من المستغربين أخذوا هذه القضايا ، ورددوها عندنا ، وليس عندهم خميرة إيمانية لايعرفون شيئاً عن حقيقة الدين ، يرون أن الدين صلاة وصوم وعبادة فقط ، فلما سمعوا ذلك الكلام رددوه عندنا ، فأصبحت القضية أن الدين يدعو إلى التخلف .

وهذا خطأ . . حتى المسيحية لاتدعو إلى التخلف ، المسيحية قامت بالشحنة الروحية فى مواجهة المادية البحتة اليهودية . . لم تقل : إنى أتعرض لقضايا الحياة . . ولم تقل : إنى أضع نظاماً للحياة .

فلما جاء الإسلام ووجد التعارض بين المادية القديمة والروحية الحديثة

كان لابد أن يجمع بين الأمرين فى دين واحد هو الإسلام ، وفى كتاب واحد هو القرآن ، يعصمنا من الهوى والأمور الأخرى التى تضر بمسيرة العلم والحياة .

والدليل على ذلك وجود علماء معمليين فهموا دينهم فى تاريخ الإسلام ، وفهموا لفتة الدين إلى العلم التجريبى ، تلك اللفتة التى سبقت الدنيا فى قوله تعالى :

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾(١)

وهذا ينص على إعراض الإنسان عن الآيات ، فكأنه بالمفهوم يقول : أى آية لاتعرض عنها ، لأن أى آية تضعها موضع التجربة والمشاهدة الدقيقة يمكنك أن تفيد منها فائدة عظمى تعينك على التقدم فى الحياة . وهذا هو أصل العلم التجريبى .

عصر البخار نشأ من ملاحظة بسيطة لاحظها أحد العلماء : . أخذ فكرته من قدر تغلى ، وتحتها النار ، فوجد غطاء القدر يرتفع ،لأن بداخلها بخاراً كثيراً ، وقد تحول البخار إلى طاقة تدفع ، ومن هنا نشأ عصر البخار.

والغواصات والطرادات كأنها الأعلام كما وصفها القرآن ،، وحمولتها آلاف الأطنان ، نشأت بملاحظة بسيطة لاحظها عالم حينما نزل الحمام ، فوجد أن الماء قد ارتفع فى الحمام ، لأنه أزاح قدراً من الماء حين نزل يساوى حجمه لاوزنه . فوجد أن هناك علاقة بين الحجم والوزن . أتى بقطعة من المعدن ووضعها فى الماء فغطست ، وحينما فرغها طفت ، أخذ من هذا أن الغاطس على قدر الحمولة .

لكل هذا كان العلماء المسلمون حين يبحثون فى العلم التجريبى يقولون :

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠٥ .

نحن نبحث عن أسرار الله فى الكون.فالإسلام يدعو إلى هذا،ولكن هل حال المسلم المنسوب للاسلام يضر بالإسلام؟ إذا رأيتم من يشرب الخمر فهل يضر هذا بالإسلام ؟ لا . الإسلام يحرم شرب الخمر ، ولكننا نحن لم نقم عليه الحد .

ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى خطر الإهمال فى الالتزام ولو كان الإهمال يسيراً . . لأن هذا التهاون سيكون فجوة يدخل منها أعداء الإسلام إلى الإسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل واحد منكم على ثغرة من ثغور الإسلام ، فليحذر الواحد منكم أن يؤتى الإسلام من ثغرته » .

كل مسلم يساوى حصناً ، فليحذر أن يؤتى الإسلام من حصنه . . وأعداء الإسلام نظروا إلى المسلمين ، فوجدوا ثغرات ، فدخلوا على الإسلام من هذه الثغرات .

والسلوك المنهجى هو خير دعوة إلى الإسلام . . قال الله تعالى :

﴿ومن أحسن قـــولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين﴾ (١) .

قال لمن ؟ قال لمن يرونه على السلوك السمح الطيب . . لفتهم من ذاته إلى دينه وقال : خذ الدين من السلوك الملتزم . ها أنذا من المسلمين فانظروا إلى سلوكى .

ولهذا انتشر الإسلام بواسطة التجار الملتزمين ، من معاملاتهم على أساس أدب وورع الإسلام ، قل لهم : أنا هكذا لأننى مسلم .

---

(١) سورة فصلت آية : ٣٣ .

ولذلك فكثير من المفكرين هداهم إلى الإسلام أمور تمر بدون انتباه .

فالرسول كان أصحابه يخافون عليه من خصومه ، فكانوا يحرسونه ، يفدونه بأنفسهم ، هذا هو معنى الحراسة . وذلك لأن بقاء صاحب الفكرة خير من بقاء حراسه .

الصديق فى الغار عرض نفسه للخطر ، لأن الرسول لا يعوض ، أما هو فيعوض. هذه شهادة بأن بقاءه خير من بقائهم .

وفى يوم من الأيام فوجئوا بأن الرسول قال لهم : انصرفوا عنى ، لأن الله قال لى :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (١) .

أسلمت امرأة لهذا السبب . قال : إن الإنسان يغش الدنيا كلها ، ولكنه لا يغش نفسه . ولهذا فمحمد ينقل فعلا عن الله .

والرجل الذى كتب كتاب « العظماء مائة » جعل أعظمهم وأولهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقال : هذا الرجل أعظم رجل فى العالم لأنه مازال يحكم ملايين المسلمين وهو فى قبره .

المهمة التى يجب أن يعرفها كل مسلم أنه ساعة يفعل شيئاً مخالفاً لمنهج الله فلينظر كم صد من الناس ، وكم أثار الشك فى الدين فى صدور ناس . . ومن هنا حذر النبى صلى الله عليه وسلم من أن يؤتى الدين من ثغرته . . واذكروا جيداً قول الرجل الذى أسلم : الحمد لله الذى هدانى إلى الإسلام قبل أن أعرف المسلمين .

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٧ .

شبهة تناقض القــرآن

شىء آخر يأخذه خصوم الإسلام ، ليخدعوا به السذج :. وقبل أن نعرض لذلك الشىء نقول : إنه يجب على ولى الأمر حاكماً كان أو أباً أو معلماً أن يبصر من تحت يده من الأبناء والنساء بأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها . . لأن هذه سنة القرآن .

فالقرآن عرض علينا أباطيل خصوم الدين ، ورد عليها . . لأنه لوترك القضايا تفد علينا من غيره لدخلت علينا بغير دليل على بطلانها . . إذن لابد من عرض هذه القضايا ومعها دليل البطلان ، لئلا تنفرد القضايا بالقلب .

حينما يفد علينا مرض ، ونريد أن نتحصن منه فإننا نذهب إلى المرض نفسه ، ونأخذ الميكروب فى صورة غير شرسة ، ونعطيه للناس فى صورة « حقن » . وأولياء الأمور من علماء ومدرسين وآباء ، عليهم أن يعرضوا هذه القضايا من جهتهم ، ولا يدعوها تفد إليهم من ورائنا ، لأننا إن هوجمنا من الخلف هوجمنا بشراسة .

وكثير من الناس يستنكفون أن يذكروا هذه القضايا لأبنائهم ، لئلا يلفتوا أنظارهم إليها ، وهذا خطأ،لان وسائل الإعلام شتى ، فإن احتطت ألا تفد هذه الوافدات عن طريقك ، فإنك لا تستطيع أن تمنعها من الوصول من غيرك وعن طريق وسائل الإعلام .

وخصوم الإسلام يقولون : إن القرآن الذى يرفعه المسلمون إلى مرتبة التقديس ليس من عند الإله . . لأن الإله لايمكن أن يتضارب ، وهذا القرآن متضارب فى كثير من آياته ، وعدوا عشر آيات ظاهرها التضارب ، وعنونوها « سفر البرهان فى متناقضات القرآن » . وعرضوها بغير سليقة العربى ذى الملكة الذى يفهم الأسلوب ويدرك مراميه .

عرضوا قول الحق سبحانه ليشككوا فى القرآن ذاته : **﴿ ولا تزر وازرة**

وزر أخرى﴾ (١) وقالوا : تلك قضية قرآنية . وقالوا : ثم يسهو محمد أنه قال هذه الآية ، فينطلق لسانه بآية أخرى تناقض هذه الآية هو قوله :

﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ﴾ (٢) .

فكيف لاتزر وازرة وزر أخرى ، ثم يحملوا أوزارا مع أوزارهم ؟

هم معذورون ، لأنهم لم يتمرسوا بفهم الأسلوب العربى ، أو هم فاهمون ، ولكنهم يحاولون أن يدخلوا على الناس بهذا ، لأنهم سيخاطبون ناشئة ، هذه الناشئة ليس عندها بصر بأسلوب اللغة .

فنقول لهم : لاتضارب ، لأن الدين الإسلامى دين ذاتى ، بمعنى أن الإنسان لايعاقب إلا على فعل فعله باختياره غير مكره عليه فى زمن يكون التكليف فيه موجوداً . ومعنى التكليف هو البلوغ والعقل إلى آخر الشروط الموضحة فى مواضعها من الشريعة ، مما يدل على احتياطات الإسلام فى مسألة الجزاء .

فهو لم يكلف إلا من نضج عقله . . وآية نضج العقل : استكمال البنية الإنسانية بالبلوغ ، لأنه لو كلف قبل ذلك ثم طرأ عليه البلوغ ، والبلوغ ظاهرة جنسية عارمة ، ربما قال : هذه لم تكن عندى ساعة تعاقدت على الإيمان . أنا الآن أجد فى جسمى أشياء أخرى .

والنضج فى كل شىء حى هو أن يقدر بذاتيته على أن يتجنب مثله ، ولذلك فمن رحمة الله بنا من أجل بقاء الأنواع أن الثمار كلها فى أصل تكوينها إنما تكون من أجل حماية البذرة التى فى داخلها . . ولاتنضج الثمرة وتكون حلوة إلا إذا نضجت البذرة فيها .

فأنت إذا شققت بطيخة ووجدت اللب أبيض ، فهى ليست حلوة ،

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٤ .

(٢) سورة النحل آية : ٢٥ .

أما إذا وجدته أسود لامعاً فهى حلوة . . وقطف العنب إن كانت بذرته ناضجة فهو حلو ، وإلا فلا . . وكذلك الإنسان لاينضج إلا إذا كانت عنده القدرة الذاتية على الإنجاب . وهذا هو التكليف :

فإذا أكرهته على الفعل رفع عنه التكليف ، وهذا هو الضمان لعدالة الجزاء . ويشترط أن تكون أداة الاختيار بين البديلات وهى العقل سليمة : : وهذا التحرى الدقيق للعدالة معناه أننى لا أحمل وزر سواى .

لكن الوزر الذى يفعله الشخص قد يظهر أثره فى غيره . فالذى يضل يضل بذاته ، من غير أن يتعدى ضلاله إلى الغير . . ولكن حين يريد أن ينقل ضلاله إلى الغير فإن له عملين حينئذ :

وأنه ضل فى ذاته .

و أنه أضل غيره .

فحين يضل غيره فهذا عمل جديد ، وهو حينئذ يحمل وزر ضلاله فى ذاته ، ووزر إضلاله لغيره ، وهذا وزر مع وزره ، هو أنه ضلل الغير . فهناك فرق بين وزر الضلال ، ووزر الإضلال : وهم لايفهمون ذلك .

ألم يروا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » . ؟

لأنها مادامت سنة فقد أصبحت أسوة : ولذلك شرع الإسلام ستر بعض الجرائم ، لأن إشاعتها تعطى أسوة فى الشر : فيسترها ، ويأمر بعدم التنقيب عن عيوب الناس ، لئلا توجد الأسوة فى الشر ، فإن وجدت أسوة فى الشر فالذى صنعها هو الذى كشف عنها وأشاعها :

إذن فالمسألة الأولى من كتاب سفر البرهان فى متناقضات القرآن منقوضة :

وبعد ذلك يعرضون قضية العقوق الأبوى ، قالوا : إن القرآن يحض

الناس على أن يعاملوا آباءهم معاملة سيئة وقاسية . وعرضوا الآية :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ﴾ (١) .

ثم يقول : ويؤخذ محمد بعد ذلك بعاطفة من حنان تجعله يسهو فيقول ثانياً :

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ﴾ (٢) .

ونقول لهم : وماذنبنا نحن إن كان هؤلاء لايفهمون العربية ، لابسليقة اللغة ، ولابإتقان الصنعة ، نريد منك أن تخبرنا فى لغتك : ما هو الود؟ وما هو المعروف ؟ فالآيتان لم تردا على شيء واحد ، بل جاءت الأولى فى الود ، وجاءت الثانية فى المعروف.ولو أن الآيتين وردتا على شيء واحد ، لأمكن أن يقال : هناك تناقض .

ما هو الفرق بين الود والمعروف ؟

الود : حب القلب . وحب القلب يدعو إلى انجذاب القالب بتبعاته من كل مظاهر الحب . والمعروف : بذل القالب .

المعروف تصنعه مع من تحب ومن لاتحب . وتبعات الود لاتصنعها إلا مع من تحب . فالأب الكافر لا يحبه المؤمن بالقلب ، ولكن يصنع له المعروف ،لأن الابن مأمور بأن يكون صاحب معروف حتى مع أعدائه :

الود القلبى يترتب عليه المعروف . . أما الود فلايترتب عليه الود القلبى ، ووقائع الإسلام الدالة على ذلك كثيرة .

فسعد بن أبى وقاص حين أسلم حلفت أمه ألا تأكل ، ولا تشرب ،

---

(١) سورة المجادلة آية : ٢٢ .

(٢) سورة لقمان آية : ١٥ .

ولا تغسل ، ولا تقوم من الشمس . . فقال سعد لقومه : دعوها ، فإن آذاها القمل اغتسلت ، وإن عضها الجوع أكلت ، وإن أصابها الظمأ شربت . وقال لها : يا أمي ، والله لو أن لك مائة نفس ونفس ، ثم فاضت منك نفساً نفساً على أن أترك دين محمد ما تركته .

هذا هو الذى صنعه الإيمان .

الحب لايتسع لأمرين أبدا ، لأن الله يقول : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ (١). ولذلك حينما يطلب الله من المؤمن ألا يجعل حب الدنيا فى قلبه ، فلأن الله يريد أن يكون قلب المؤمن منزله ، ولا يريد أن يجعل معه فى القلب سواه .

والدليل على ذلك : أن الذين آمنوا خلعوا من قلوبهم الود لكل كافر ، ولو كان وداً غريزياً أو عاطفيا كما حدث من سعد .

وهناك مثل آخر . . ففى موقعة بدر كان سيدنا أبوبكر بجانب النبى صلى الله عليه وسلم ، وابن له كان ما يزال كافرا يحارب معهم فى صف ضد أبيه . ثم أسلم الولد بعد ذلك فقال الولد لأبيه :

يا أبت لقد رأيتك يوم بدر ، فعزفت عنك مخافة أن ينالك شىء .

فقال أبو بكر رضى الله عنه : والله يا بنى لو تراءيت لى يوم المعركة لقتلتك .

كلاهما صادق ، لأن أبا بكر يقارن بين بنوة وربوبية . . . فيرجح عنده جانب الربوبية . . ولكن ابنه يقارن بين أبيه وبين لا شىء . لأنه تبين أنه لا يؤمن بأصنامه ، وإلا لدخلت فى المقارنة ، بدليل أنه تركها وأسلم .

كل ذلك دليل على أن الحب الإيمانى إذا تمكن فى القلب لا يوجد فيه فراغ لأن يحب شيئاً آخر .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤ .

ونحن نلاحظ أم حبيبة بنت أبى سفيان . وأبو سفيان رجل له مكانته وسيادته ، وكان يقال له : سيد العير . وأم حبيبة حين أسلمت وهاجرت مع زوجها — وكانت تحبه — وشاء الله أن يخلصها للحب له وحده ، والإيمان به ، فأغراه أحد الأحباش بالنصرانية فتنصر ، وبقيت هى على دين الإسلام .

إذ ثبت أنها آمنت لا لأن زوجها آمن ، وهاجرت لا لأن زوجها هاجر ، لذلك لم يكن لها من مكافأة عند الله وعند رسوله إلا أن يطمئنها إلى أن العوض عند الله ، فعوضها عن زوجها الذى تنصر ، بأن تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تذهب إلى هناك . ، بل جعل النجاشى يعقد لها عليه ، حتى يعجل لها بالعوض ، وأصبحت أماً للمؤمنين . وحين تصبح أماً للمؤمنين يكون قد ألزم كل المهاجرين بأن يكونوا فى خدمتها ، وطوع إرادتها . . يذهب زوجها ، فيصبح المسلمون فى الحبشة كلهم رعية لأم حبيبة .

وبعد ذلك تأتى إلى المدينة ، ويذهب إليها أبوها ، فتمنع أبا سفيان من أن يقرب فراش رسول الله ، لأنه مشرك ، وهذا هو ما يفعله الإيمان فى القلوب .

فلا يوجد ود فى قلب مؤمن لغير الله ، ولغير من يشترك معه فى حب الله ، والإيمان بالله ، الود العاطفى والجسدى يذهب ، ويأتى الإيمان كما حدث لمصعب بن عمير رضى الله عنه .

ومصعب بن عمير تربى فى النعيم ، ولما أسلم عاش الكفاف ، ولكنه كان أول داع إلى الإسلام فى المدينة . . والتقى بالكفار فى غزوة بدر ، وكان له أخ اسمه أبو عزيز يحارب مع الكفار ، وقد وقع أسيراً فى يد أنصارى اسمه « أبو اليسر » . ومر عليه أخوه مصعب وهو أسير ، فقال لآسره : اشدد على أسيرك ، فإن أمه غنية ، وستفديه بمال كثير . فقال أخوه له : أهذه وصاتك بأخيك ؟ قال مصعب : هذا أخى وليس أخى ؟

من هنا تعلم أن الود الإيمانى عمل قلبى بحت ، والمعروف إحسانى لمن تحب ومن لا تحب .

وقالوا : إن قرآن محمد تعرض لقضية كونية ما كان أغناه أن يتعرض لها.لأنها ليست من مهمة الإيمان ، ولكن يشاء الله أن يوقعه فيها حتى تكون حجة عليه . قالوا : إن القرآن يتكلم عن خلق السموات والأرض . ويقول إن الله خلقهما فى ستة أيام .

وهذا يعطينا أن خصوم القرآن يقرءون القرآن ، ويعملون الإحصائيات حتى يفهمونا أنهم يتكلمون عن دراسة، وأنهم يستخرجون ما لا يستخرجه المؤمنون ، لأن المؤمنين يقرءون القرآن بقداسة أنه من عند الله .

ونقول : إن إعلان خصوم الإسلام عن هذه القضايا مقصود لله تعالى ، حتى يظهر إعجاز القرآن ، ويظهر أنه من عند الله على مر العصور كما قال الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

إذن « فالمعطيات » التى صنعها أهل الكفر هى التى دفعت أهل الإيمان إلى الرد عليها ، فبدا جمال الدين ، وجلال القرآن .

آيات القرآن تنص على أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام . ولكن آية واحدة اكتشفها أعداء الإسلام بزعمهم وقالوا : إنها فضحت محمداً قبحهم الله . وهى قوله تعالى :

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ (١)

ووضعوا تحت يومين خطين ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ﴾(٢)ووضعوا تحت أربعة أيام أربعة خطوط

(١،٢) سورة فصلت الآيتان : ٩ ، ١٠ .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ (١). ووضعوا تحت اليومين خطين . وقالوا اقرءوا الخطوط تجدوها ثمانية أيام . إذن محمد سها حتى قال : إنها ثمانية أيام .

نقول لهم : أنتم لم تفهموا معطيات القرآن ، لأنه نزل باللسان الفصيح الوضيح . كل حرف فيه له معان ، والحس الصحيح هو الذى يدرك المعلومة القرآنية الصحيحة . والعربى يقرأ القرآن بملكته ،وساعة يقرأه بملكتهيستطيع أن يضع اللفظ فى مكانه المناسب وإن لم يكن منقوطاً .

الذى خلق الأرض فى يومين ، وجعل فى الأرض رواسى من فوقها أى من فوق الأرض ، وقدر فيها أقواتها ، أى أقوات الأرض ، إذن ما يأتى فى كلمة أربعة أيام لمخلوق ليس ابتداء ، ولكنه تتمة لشىء .

الأيام الأربعة لم تتكلم عن خلق جديد ، وإنما تكلمت عن إتمام شىء موجود ، فالله خلق الأرض فى يومين ، وجعل فيها رواسى وقدر فيها أقواتها فى تمام أربعة أيام ، كما تقول سرت من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات . . فهل يكون المعنى من طنطا إلى الاسكندرية فى ثلاث ساعات ؟ لا . بل من القاهرة إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات .

إذن الآية دخل فيها اليومان الأولان فى الأربعة . إذن لا تحسب الاثنين مرتين ، فعندنا الآن أربعة أيام . .

بعد ذلك هناك يومان ، فالمجموع ستة ، فاتفقت آيات الإجمال مع آيات التفصيل وانتهى الإشكال .

* * *

وعرضوا قضية أخرى ، هى أن محمداً يجىء بألفاظ تؤدى معانى ، ولا يفطن إلى وجه التداخل فيها :

يقولون هذا كأنهم يفهمون العربية أكثر من القوم الذين لهم ملكة

(١) سورة فصلت الآيتان (١١ ، ١٢) .

العربية ، حتى إن القرآن جاء يتحدى ملكتهم . فلو صح ما يقولونه لسهل على أصحاب الملكة من العرب أن يردوا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا كافرين ، ومعارضين له ، ويتلمسون له الأخطاء . فلو كان هناك خلل فى البيان لملأوا الدنيا صياحاً :

ومع ذلك فقد أبقى الله تعالى كثيراً من صناديد الأمة كافرين حتى يشحذوا عقولهم للتحدى ، ومع ذلك لم يستدركوا على القرآن شيئاً .

قالوا هناك آية تقول : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾(١)

وآية تقول : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ (٢) .

أليس فعل الفاحشة ظلما للنفس ؟ وأليس السوء ظلما للنفس ؟ فكيف يكون العطف بأو وهى تقتضى المغايرة . . ما كان هناك داع للعطف بأو ، إلا أن محمداً سها ؟

نقول : أو تأتى للتخيير ، والإباحة ، والتقسيم . وهى هنا للتقسيم .

الذى يفعل الفاحشة أو السوء يحقق لنفسه متعة عاجلة ، وينسى العقاب الآجل . وهذا هو فعل السوء أو الفاحشة . وفى بعض الحالات لا يحقق لنفسه متعة ، وإنما يحقق لغيره المتعة ، وهذا ظالم لنفسه ، لأنه سيعاقب والمتعة لغيره كشاهد الزور مثلا ، يحقق الفائدة لغيره ، ويبوء هو بالإثم ، وهذا هو ظلم النفس ، فاختلفا .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٥ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

القــرآن والعــلم الحــديث

وجاءوا بفرية أخرى هى أن أقوال علماء الإسلام متضاربة فى قضايا القرآن . . . فبينما نجد قوماً يتحمسون لكل ابتكار جديد من ابتكارات العلم الحديث فى العصور الحديثة ، ثم يذيعون ويشيعون أن القرآن قد سبق إلى هذه القضية منذ أربعة عشر قرناً . وهناك أناس يؤلفون كتباً فى هذه المسألة . . . وهذا كلام صحيح .

وهناك علماء آخرون ينكرون قضايا جاء بها العلم الحديث مجيئاً يقينياً ، ومع ذلك ينفونها ، لأن القرآن لا يؤيدها ، ويستدلون على ذلك بكتيبات طبعت بالفعل لبعض العلماء الذين ينكرون كثيراً من قضايا العلم الكونية ، لأن القرآن يتعارض معها ، ويقصدون عرض قضية لا تدل على ما على الأرض ، ولكن تتعلق فى نفس جرم الأرض .

وعرضوا كتاباً ألف فى هذا الموضوع ، مما يدل على أنهم استوعبوا ما كتب عن الإسلام من رجال الإسلام ، فجاءوا بالمؤلفات التى تقول : إن القرآن يتمشى مع العلم الحديث ، والمؤلفات التى تقول إنه يعارضها وقالوا :

نريد أن نعرض قضية واحدة ، ليست هى ما على الأرض ، ولكن عن الأرض ذاتها .

لقد ثبت علمياً وتجريبياً ومشهدياً وواقعياً أنها كرة ، لا سيما بعد أن عبر الإنسان الفضاء ، وصورها من الخارج فجاءت كل الصور للأرض وهى كروية .

وقالوا : إن هناك كتاباً ألف فى بلد يحكمه منطق الإسلام . وأظنهم يقصدون السعودية — وقالوا : إن هذا الكتاب يكذب كروية الأرض ، ويقول عنها : إنها خرافة ، ولكن الأرض مسطوحة ، وجاءوا بالأدلة التى تثبت أن الأرض ليست كروية ولكنها مسطوحة .

ونحن نقول لهم : إن فهم واحد من علماء المسلمين لقضية قرآنية لا يعتبر حجة على القضية القرآنية . . لأن كلمة الحق شيء ثابت ، والشيء الثابت لا يتغير إلى مقابل ولا إلى نقيض . وما دام الشيء ثابتاً فهو مثله فيما مضى وفيما يكون .

فإذا نظرنا إلى الكون وجدنا فيه حقائق كونية ثابتة ، وهى مخلوقة لله ، والقرآن كلام الله ، وما دام الكون من خلق الله ، والقرآن كلام الله ، فوجب ألا تتعارض حقيقة قرآنية مع حقيقة كونية أبداً . فإن تعارضت الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية فإن واحدة منهما ليست من عند الله . وإذا التقت الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية فكلتاهما من عند الله .

فإذا وجدنا حقيقة قرآنية تتعرض لأن تهدمها حقيقة كونية ، أو حقيقة كونية تتعرض لأن تهدمها حقيقة قرآنية فإننا نقول : أنتم المخطئون فى فهم الحقيقة ، ولا بد أن يعيدوا النظر من جديد ، لتفهموا الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية ، لأن إن وجدت حقيقة قرآنية هى الحقيقة القرآنية ، وحقيقة كونية هى الحقيقة الكونية ، فلابد أن تتفقا . فإذا اختلفتا فأنتم فهمتم حقيقة قرآنية وهى ليست حقيقة قرآنية ، أو فهمتم حقيقة كونية وهى ليست حقيقة كونية.

ضربوا المثل بكروية الأرض . . ونحن وجدنا بعض العلماء ينكرون هذا ، ويقولون : الأرض مسطوحة . وبعد ذلك جعل هذا الفهم حقيقة قرآنية ، نقول : لا . هؤلاء أخطأوا فى أنهم جعلوا فهمهم هذا حقيقة قرآنية ، لأن القرآن لا يعطى هذه الحقيقة ، وقد استدلوا فى هذا الكتاب على أن الأرض مبسوطة ، وعلى أن هذا يناقض ما جاء فى العلم الحديث من أنها مكورة بقوله تعالى : ﴿**والأرض مددناها**﴾(١)وفسروا المد على أنه البسط .

وقال الكاتب : ما دام الله قال : ﴿ مددناها ﴾ يعنى بسطناها ، فإن قلتم إنها كرة فلن نصدق .

---

(١) سورة الحجر آية : ١٩ .

هم يؤمنون بالحقيقة القرآنية . . . ويؤمنون بأنه إذا قال القرآن ذلك فلا يمكن أن توجد حقيقة كونية تخالفها ، ولكنهم أخطأوا فيما فهموه هو حقيقة قرآنية ، لأن (مددناها) لا تعطى معنى بسطناها .

فمعنى (مددناها) أنك كلما وقفت على مكان من الأرض وجدت أمامك أرضاً أخرى ، فهى ممدودة ، ولو كانت مبسوطة على هيئة مستطيل أو مثلث أو أى شكل آخر ، فلابد أن تكون لها حافة ما دامت مبسوطة ، وإن وصلت إلى الحافة انتهى معنى بسطناها ، ولم تعد ممدودة . لكن الله يقول : (مددناها) .

فأنت طالما تقف على أرض فستجد أمامك أرضاً ممدودة ، وخلفك أرضاً ممدودة ، وعن يمينك أرضاً ممدودة ، وعن يسارك أرضاً ممدودة . ولا يتأتى ذلك أبداً إلا إذا كانت مكورة . . فإذا كانت على غير هيئة التكوير لا ينطبق الواقع على قوله تعالى : (مددناها) .

إذن الكاتب المتعصب لقرآنه أخطأ فى فهم الحقيقة . لكن لو فهمت الحقيقة لما وجدت هذا التعارض .

ولذلك قلنا : إن كثيراً من الذين يحلو لهم أن يجعلوا العلم الحديث يصادم القرآن يعرضون قوله تعالى :

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾ (١)

وقفوا عند قوله : ﴿ ويعلم مافى الأرحام ﴾ وقالوا : إن الطب الحديث الآن يعلم ما فى الرحم .

نقول : صدقت ، ولكن من الذى قال لك إن الله حينما قال : ﴿ ويعلم مافى الأرحام ﴾ أراد : أذكر هو أم أنثى ، بل هى عامة . يعلم كل ما يتصل بالأرحام ، وليس الذكورة والأنوثة فقط . . ويعلم إن كان الولد طويلا أو قصيراً ، سعيداً أو شقياً ، ذكراً أو أنثى ، طويل العمر أو قصيره ، غنيا أو فقيراً . إلى آخر ما يتصل بحياة الإنسان .

---

(١) سورة لقمان آية ٣٤ .

أخطأتم فى فهم الحقيقة القرآنية ، وهى ليست حقيقة قرآنية ، هل يرسل الحق سبحانه وتعالى أحداً ليأخذ عينة من رحم الأنثى ليحللها ، وبعد ذلك يقول : ذكر هو أم أنثى ؟ لا . بل إنه يعلم ولا يرسل أحدا ليبشر به : هو وحده الذى يبشر : قال تعالى :

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيي ﴾ (١)

قال ذلك قبل أن يلتقى زكريا بزوجه :

وهب أن الله كشف عن بصيرة أحد كما حصل لأبى بكر فتنبأ بأن ما فى بطن امرأته أنثى ، فهذا إلهام من الله . فهل الله قال لأبى بكر : اذهب إلى الحمل ، وخذ عينة وحللها لتعلم ؟ لا . فالله يعلم ما فى الأرحام بدون أن يقترب من المرأة . وبدون أن يأخذ منها شيئاً ليحلله .

أما أن يعلموا الأشياء بواسطة مقدمات فلا يقال : إنكم علمتم ما فى الأرحام .

إذن علينا أن نعلم أن الذين يخاصمون الإسلام يستوعبون ما قيل عن الإسلام ، سواء من الذين يفهمون الإسلام حقيقة ، أو من الذين لهم إخلاص للإسلام ، وليس لهم عقل الاستنباط من الإسلام .

وما داموا هكذا فنحن نهيب بمثل هؤلاء ألا يدخلوا القرآن فى مثل هذه المتاهة ما داموا لا يستطيعون الاستنباط فيه ، أو البرهنة على كلامهم ، لأن هؤلاء يأخذونها حجة علينا نحن ، وبعد أن يأخذوها حجة علينا ينقلونها لتكون حجة على الإسلام .

---

(١) سورة مريم آية : ٧ .

الإنسان على القمر

وجاءوا أيضاً بشيء قامت حوله ضجة عظيمة ، حينما وصل الإنسان إلى سطح القمر ، فبعضهم أنكر ذلك ، وبعضهم أراد أن يدخلها فى مدلول القرآن . . من قوله تعالى :

﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (١) .

هلل كثير من المسلمين وقالوا : إن القرآن قد تنبأ بوصول الإنسان إلى القمر بهذه الآية ، وهو يريد إخلاصاً لدينه أن يبين سبق القرآن لقضايا جاءت فى القرن العشرين . لا بد أن يسنده عقل وفكر حازم ، بحيث لايتورط الإنسان ، فيمكن خصمه منه ، فيكون الذى خسره من الحقائق الثابتة أكثر من الحقائق التى لم يستطع أن يدلل عليها .

هل هذه الآية نص فى الموضوع إذن ؟

قلنا : إن مسألة الشمس والقمر لم تأت فى الآية . . وإنما الذى جاء هو أقطار السموات والأرض،أى لا تأخذ أقطار الأرض وحدها ، بل لابد أن تأخذ معها أقطار السموات :

ونحن نعلم بالواقع الفلكى الذى قاله العلماء أن الأرض سيار من السيارات أو تابع من التوابع هو المجموعة الشمسية التى فيها الأرض . وهم قالوا : إن المجرة التى تعتبر مجموعتنا الشمسية منها ،فيها مائةمليون مجموعة شمسية أخرى. ونحن بيننا وبين القمر هذه المدة البسيطة التى لا تتجاوز ثانيتين ضوئيتين . وبيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية . ومع ذلك هى دون السماء الدنيا . فما دخل أقطار السموات فى الآية ؟

إن القمر يعتبر ضاحية من ضواحى الأرض ، فما الذى أدخل السماء والأرض ؟

---

(١) سورة الرحمن آية : ٣٣ .

وكلمة (سلطان) فى الآية لا يمكن أن تكون سلطان العلم ، لأنه لو كان معناها سلطان العلم لدخل فى استطاعتنا ، وما دام قد دخل فى استطاعتنا فكيف يقول الله تعالى بعد ذلك :

﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ (١)

إذن هذه الآية لا تنطبق على هذا الواقع .

فعلى العلماء أن يبحثوا عن فهم الحقائق حتى لا يرتد فهمهم ضدهم .

يقولون : ما معنى الاستثناء فى قوله : (إلا بسلطان) ؟

معنى الاستثناء أنه ليس سلطان الناس ، وإلا لم يرسل الله شواظ النار والنحاس . فرسول الله صلى الله عليه وسلم عرج به إلى السماء السابعة وما فوقها فلو لم ترد كلمة (إلا بسلطان) لكذبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المعراج . فالمعنى على هذا : إلا بسلطان منا . هو سبحانه الذى يلغى القوانين ، ويلغى النواميس ، ويجعل واحداً منكم ينفذ إلى أقطار السموات ويكون صادقاً .

فيجب على العلماء ألا يغفلوا بإخلاصهم عن كثير من الملامح حتى لا يخسروا أكثر مما يكسبون .

وعلى هذا يجب أن نفرق بين الحقيقة على أنها حقيقة ، وبين الأمر يظن أنه حقيقة . إذن فالتصادم بين القرآن والكون جاء من شيئين :

الأول : أن تعتبر حقيقة قرآنية وهى ليست حقيقة قرآنية . وهذه فعلتك أنت .

الثانى : أن تعتبر حقيقة كونية ، وهى ليست حقيقة كونية :

فإذا ما انتهيت إلى أن هذه حقيقة قرآنية بمقاييس الحقيقة ، وهذه حقيقة كونية بمقاييس الحقيقة ، فلا بد أن يلتقيا .

---

(١) سورة الرحمن آية : ٣٥ .

الشك فى الرسول

وآخر ما أذاعه المفترون على الإسلام أن قالوا : إنكم تؤمنون بأن محمداً مبلغ عن ربه ، والواقع ينقض ذلك ، لأن محمداً نشأ فى جزيرة العرب ، مع إخوان عاصروه ، ومن الإخوان الذين عاصروه عمر بن الخطاب. والرسول نفسه يقول لعمر : « أوشك أن يصيبنا شر فى خلافك يا عمر » . كان ذلك فى مسألة الأسرى، وكان عمر أشار برأى ، وأبو بكر أشار برأى، فأخذ الرسول برأى أبى بكر ، فلما نزل قوله تعالى :

﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (١) .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « كاد يصيبنا شر فى خلافك ياعمر» .

قالوا : إذن فعمر كان له رأى أصح من رأى محمد وأبى بكر . إذن فقد ثبت أن مثل محمد من العرب يستطيع أن يأتى بأشياء عجيبة ومتميزة ، بدليل مسألة عمر هذه ، وبدليل أشياء كثيرة سبق فيها عمر القرآن . . هذا قولهم مع خطئهم فى سبق عمر للقرآن . بل هو موافقة القرآن لعمر .

نقول : هذا صحيح . . . مثل اتخاذ مقام إبراهيم مصلى أو مثل الحجاب . وغيرهما ، وهذه ملحظيته لو أن الناس فطنوا إليها لأكد ذلك صدق القرآن فيما يأتى من القضايا التى تتصل بالفطرة السليمة .

فكأن القرآن ترك لمثل عمر أشياء يقترحها بفطرته الصافية ، ليدل على أن الفطرة الصافية تصل ما بينها وبين تشريع السماء .

ولكن أين كانت فطرة عمر الصافية يوم أراد أن يقتل رسول الله ؟ أين كانت فطرته الصافية يوم عاداه ؛ ويوم أن ذهب إلى أخته ليقتلها لأنها أسلمت ؟

إذن فالفطرة الصافية هى التى نفض عنها الإسلام غبار الجاهلية ،

---

(١) سورة الأنفال آية : ٦٨ .

ولو تركت بغير إسلام لكانت فطرة منطمسة . فالإسلام أزاح عنها الغشاوة التى لحقتها ، والتراكمات التى أحدثتها الجاهلية ، ولذلك يقولها عمر نفسه : « من أنا لولا الإسلام » ؟

ما العلة فى أن يكون عمر موجوداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله يوحى إليه ، فيقترح عمر أشياء ، فيأتى بها القرآن ؟ هذا هو الذى يجب أن يسأل عنه .

العلة : أن الله يريد أن يقول لنا : أنا لم أتعبدكم بشىء يخالف الفطرة السليمة ، ولو أن فطرة سليمة فكرت بحق لوصلت إلى ما يريد الإسلام من تشريع ، ولكن من يضمن أن الفطرة صافية ؟

إذا جئت بمصباح تعلوه أتربة وأوساخ ، فإن الضوء يحجب من المصباح ، أما إذا أزحت هذا الغبار فإن نوره يسطع .

وأنت لم تأت بزيادة سوى أنك صقلت الفطرة ، فتجلت الفطرة بنصاعتها الطبيعية ، فكأن الله تعالى بتركه كثيراً من القضايا ليكتشفها تابع من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخلص فكره للدعوة ولله ، وصقلت فطرته ، يقول لنا : إن هذه الفطرة تستطيع أن تصل إلى قضايا الدين ، فالله تعالى يثبت لنا أن هذه المسائل لو لم تنزل من السماء لنبعت من صفاء الفطرة فى الأرض .

الخاتمة

وبعـــد : فلعلنا نكون قد وفقنا إلى عرض كثير من المفتريات المعدة لنا ، والتي وفد بعضها ، ويوشك بعضها أن يفد إلى بيئاتنا الإسلامية .

وإذا كان هذا هو ما أعلن من توصيات المؤتمر ، فما بالك بما لم يعلن مما قيل عنه : إنه سيعلن في حينه . ؟ بالقياس إلى الأشياء المعلنة ، لابد أن هناك أخطر من هذا بكثير .

كل هذا شاء الله أن يتسرب إلينا هذا الشيء ، ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾(١)فإذا كان الله كما فضح سابقاً بورتوكولات حكماء صهيون بواسطة داعرة ، وكانت الأوراق في حقيبة سكرتير اللجنة ، وكان يبيت معها في سكر شديد ، ففتحت الحقيبة لترى ما فيها ، فباعت الأوراق ، وانكشف المستور ، فإنه قد فضح هذه البيانات كذلك بسره ، وبقدرته الفائقة .

وذلك لأن الله يريد الإسلام محفوظاً ، فيجب أن نفيد من تسربها إلينا ، وأن نعمل جاهدين على أن نستعملها بالمناعة الإيمانية ، والحصانة الإسلامية ، وهذا لا يكون إلا إذا تكتلنا جميعاً بحيث نقف أمام هذه الوافدات وقفة ونحن يد واحدة تتمثل في أولياء الأمور .

فعلى أولياء أمور النشء أن يعرضوا هذه القضايا على أبنائهم ، ويعلموهم كيف يردون عليها ، وعلى الشباب كما يفزعون في مطلوباتهم المادية إلى ذويهم أن يفزعوا في مطلوباتهم القيمية إليهم أيضاً ، لأن مقومات القيمة أكبر من مقومات الدنيا .

---

(١) سورة المدثر آية : ٣١ .

وعلى أولياء الأمور أن يحسنوا إعطاء المناعة لأبنائهم إن علموا الرد . . وإن لم يعلموا فعليهم أن يذهبوا إلى أهل الذكر ، ليأخذوا منهم الردود التى تقف أمام هذه الوافدات .

وأما العلماء فعلى من كان منهم من الدعاة أن يكونوا على ذكر من هذه القضايا، وكل منهم يبصر بما له من علم مايراد بالإسلام من الكيد، وأن يعرض هذه الوافدات مع الردود عليها ، وأن يبالغ فى تكرارها حتى تستقر فى أذهان الناس ، ناشئهم وكبارهم على السواء .

وعلى العلماء أن يلاحظوا أنهم حين يتكلمون عن الإسلام فعليهم أن يجتهدوا فى أن يكون إسلامهم مصفى ، لأن الخلاف يستغل فى أن الإسلام ليس له خط واضح يجتمع حوله الناس .

وعليهم بعد ذلك أن يجتمعوا من كل بلاد الإسلام ليتفقوا على رأى واحد فى المسائل الخلافية ، وحينئذ لا يجوز للمعارض أن يعلن رأيه بعد الاتفـــاق .

احموا الإسلام أيها العلماء من هذه الخلافات ، ، فتلك ميزة الفتوى الجماعية .

لم يعد العصر يحتمل أن يكون لكل عالم فتوى، وإلا لأصبح لكل عالم جمهور ولكل عالم متعصبون ، وحين يوجد ذلك فهم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . . . فيجب أن يعاملوا دينهم كما يعاملون قضاياهم السياسية .

ويجب على حكام المسلمين أن يعلموا أنهم بتركهم هذه الأمور فكل إنسان هاو وسيكون له إسلام ، وسيتمثل الإسلام فى السلطة المركزية ، حتى يكون لكل واحد منهم عبادة ومساجد ، وكل هذا سيفت فى عضد الإسلام والمسلمين :

ولو أن الحكومات كانت إسلامية بحق لكان للدين المكان الأول فيها .

ما بالهم يتكاسلون حتى لا يسيطر الدين على حركة الحياة . . فليفطنوا إلى هذا ، وإلا فليعاود الحكام إيمانهم ، ولا يكونون مسلمين صورة فقط .

وليعلم الجميع أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، لأن الله يزع المتقين بالقرآن ، ويزع العصاة بالسلطان ، والدنيا تريد من يصلحها الآن ، ولو جعلنا الأمور كلها تتأخر إلى الآخرة لفسدت الحياة .

وليفهم الجميع أنه لا يكفى أن يكون عندنا إسلام ، بل يجب أن يكون الإسلام فى أيد مسلمة . قال الشاعر :

وعادة السيف أن يزهو بجوهره   وليس يعمل إلا فى يدى بطل

يجب ألا نغمـــد إسلامنا .

يجب أن نسل إسلامنا ليقف أمام جنود الباطل وقفة ترد كل واحد إلى حجمه الطبيعى.وحين نفعل ذلك يعلم الناس جميعاً أن للإسلام صاحباً .

والرسول صلى الله عليه وسلم يضع الأمور وضعاً طبيعياً فيقول : « الإسلام إس ، والسلطان حارس ، وما لا أس له يهدم ، وما لا حارس له ضائع .».

ويجب أن نعلم أن الحال الذى ينتظم الدنيا كلها حال غير طبيعى مع الارتقاءات الشائعة فى الدنيا .

إن الأمر الطبيعى أن يكون كل ارتقاء عاملا من عوامل ازدياد أمن الناس وسلامهم وطمأنتهم وخيرهم ، أما أن يكون الارتقاء عامل فزع واضطراب وحروب وتخريب وتدمير وتهديد وقلق فهذا أمر ليس طبيعياً .

والسبب فى هذا كله أن هناك شيئاً مفقوداً . . . وإذا بحثنا عن المفقود لم نجد إلا أن منهج الله مضيع فى كل مكان من الأرض .

فالمسيحية حتى فى البلاد المتحضرة ليست هى المسيحية التى جاء بها المسيح عليه السلام ، وإنما هى مسيحية سياسية . هى فكر سياسى ولكن الدين ستار فقط .

وعلينا أن ننظر فى عالمنا الإسلامى ، وسنجده كذلك مضطرباً قلقاً ، والكل أغفله فى الدول التى تريد أن تنمو . . . لقد وجد من المسلمين طائفتان تتقاتلان ، ولم توجد الطائفة الثالثة التى تصلح .

الله لا يمكن أن يتغير من أجلنا ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(١)فيجب أن نتغير نحن من أجل الله . . . وإلا فسيظل أمرنا كما هو ، وسيزداد كل يوم سوءاً على سوء .

وحين نلتفت إلى أننا قصرنا عن واجبات ديننا فذلك أول الشفاء . أما إذا تكبرنا فلا أمل فى الشفاء .

أسأل الله أن يبصر المسلمين بأهمية دينهم ، وإلى الخطر الذى يحدق بهم من خصوم الإسلام من الشرق والغرب ، فهما يريدان ذل الإسلام ، ولا يجتمعان إلا كان الضحية الإسلام .

لا نجاة لنا إلا إذا مشينا إلى الله . وإذا مشينا إلى الله خطوة أتى الله إلينا هـــرولة . . .

والسلام عليكم ورحمة الله . . .

* * *

---

(١) سورة الرعد آية : ١١ .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع　　　　الصفحة

رقم الإيداع ١٦٥٤

مطابع سجل العرب

فى هذا الكتاب

* زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم
* استغلال قضايا المرأة
* مهمة المرأة ومهمة الرجل
* المرأة تعشق التستر والاحتجاب
* الفرق بين الحب العقلى والعاطفى
* تعدد الزوجات وشبهة الطلاق
* القبور وبناء المساجد عليها
* الربا .. وصور منه
* ظلم العلماء
* الانسان على القمر
* القرآن والعلم الحديث



ت : ٣٥٥٣٨٣٨

١٥٠ ق٠م